أستراليا مهد الطوطمية

معظم الدراسات الأنثروبولوجية والنظريات التي بدأت تتبلور مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين والمتعلقة بنشوء مختلف الأنساق الثقافية والاجتماعية في المجتمعات البشرية وتطورها وبنيتها، مثل أنساق القرابة والنسق الديني والنسق الاقتصادي وغيرها، استقت مادتها من المعلومات الإثنواغرافية التي بدأت تتراكم لدى الأنثروبولوجيين عن الجماعات البدائية في الأمريكتين وأفريقيا وأستراليا وجزر المحيط الهادي وغيرها من الأمم البدائية التي تعرّف عليها الرجل الأبيض بعد نشاط الحركات الاستكشافية والاستعمارية. إلا أن قبائل أستراليا الأصلية احتلت مركز الصدارة في هذه الدراسات وحظيت باهتمام خاص لأنها كانت الأكثر بدائية وهي بذلك تمثل أقرب ما يمكن تصوره لنقطة البداية ومرحلة الانطلاق التي انطلق منها الجنس البشري نحو التطور الثقافي والاجتماعي. وقد شكلت ثقافة تلك القبائل الموغلة في البدائية المادة الأولية التي بنيت عليها معظم النظريات الأنثروبولوجية، خصوصا تلك المتعلقة بأنساق القرابة والأنساق الدينية والطوطمية بما تتضمنه من شعائر وطقوس.

نظرة عامة

يقول دوركهايم في كتابه **الأشكال الأولية للحياة الدينية** *The Elementary Forms sof the Religious Life*:

> حيث أننا نطمح في هذا العمل إلى دراسة أبسط ديانة يمكننا العثور عليها من بين الديانات وأكثرها بدائية فإنه من الطبيعي أن نتوجه إلى أدنى ما يمكن العثور عليه تطورا من بين المجتمعات، حيث من الواضح أننا سنجد هناك الاحتمالية الأكبر لوجود (هذه الديانة البدائية) ومن ثم دراستها بشكل جيد. ولا يوجد في الوقت الراهن أي مجتمع تتحقق فيه هذه المواصفات بدرجة عالية مثل المجتمع الأسترالي. ولا يتوقف الأمر عند بدائية الثقافة المادية عندهم –فهم ما زالوا لا يعرفون حتى البيوت والأكواخ– بل إن تنظيمهم الاجتماعي أيضا في منتهى ما يمكن تصوره من البدائية والبساطة، وهو ما سميناه في مكان آخر التنظيم العشائري (1965: 115).

ولا ننس أن العنوان الفرعي لكتاب **الأشكال الأولية للحياة الدينية في طبعته الفرنسية** هو *le systeme totemique en Australia*. من هذا المنطلق تأتي أهمية دراسة القبائل الأسترالية في نظر رواد الفكر الأنثروبولوجي ودراسة الطوطمية هناك لأنها كانت بالنسبة لهم تمثل نموذجا حيا للبدايات الأولى التي مرت بها وانطلقت منها كل الثقافات البشرية والتي تعود إليها جذور معظم المؤسسات الاجتماعية الحديثة.

يعود تاريخ معرفة الرجل الأبيض بوجود أستراليا إلى بداية القرن السابع عشر الميلادي حينما رست سفن بعثة هولندية على الشواطئ الغربية والجنوبية للقارة عام ١٦٠٦م، وربما وصل البرتغاليون إلى القارة قبل ذلك بقليل. إلا أن الاكتشاف الحقيقي الذي أدى إلى الاستيطان كان في عام ١٧٦٨م على يد البحار البريطاني الكابتن جيمز كُك James Cook الذي رست سفنه على شاطئها الشرقي إبان حكم الملك جورج الثالث. تلى ذلك إرسال شحنة من السجناء البريطانيين الذين نفتهم بريطانيا إلى هناك لاستعمار القارة

واستيطانها وإلحاقها بالتاج البريطاني، وكان تاريخ وصولهم يوم ٢٦ أكتوبر من سنة ١٧٨٨م. بعد ذلك توالى وصول شحنات أخرى من المستوطنين البريطانيين والأوربيين الذين صاروا يتوغلون من المناطق الساحلية إلى الداخل وبدأوا بالتدريج يتعرفون على الأبورِجين aborigines ويدرسون أحوال معيشتهم. ومما شجع على الهجرة إلى هناك الطمع في العثور على مناجم الذهب ووفرة المراعي الصالحة لتربية الأغنام مما حول القارة إلى مركز من أهم مراكز تصدير الصوف إلى مصانع النسيج في بريطانيا.

بعد أن تعرف المستكشفون على المناطق الساحلية في هذه المستعمرة الجديدة انبث الموظفون الإداريون الإنجليز يصحبهم المبشرون المسيحيون في كل الاتجاهات حاملين الأناجيل بأيديهم وعلى عواتقهم مسؤولية الرجل الأبيض في انتشال تلك الأقوام البدائية من "همجيتها" والأخذ بأيديهم إلى عصر التنوير والتبشير بدين جديد وحضارة راقية. لكن لم يمض وقت طويل حتى تبين لهم أن السكان الأصليين يفضلون المشروبات الروحية على دم السيد المسيح وماء التعميد. وقد أدى فشل المهمة واليأس إلى توتر العلاقة بين هؤلاء المبشرين والموظفين الإداريين وبين السكان الأصليين. ومع ذلك وُجد من بين أولئك المبشرين والموظفين من كانوا بحكم تأهيلهم يتمتعون بمستوى لا بأس به من التعليم ونسبة معقولة من الانفتاح الذهني والوعي مما ساعدهم على محاولة فهم ثقافة الأبورِجين كما هي، لا كما يريدون هم لها أن تكون، والحكم عليها من منطلقاتها هي لا من منطلقات ثقافة المجتمع الفيكتوري. والبعض منهم شمر عن ساعديه واجتهد في كتابة تقارير احتوت على معلومات مهمة ومفيدة جاءت في الوقت المناسب قبل اضمحلال ثقافة الشعوب المحلية. ذلك النزر اليسير من التقارير الوصفية، بالرغم مما تعانيه من قصور من الناحية المنهجية والنظرية، كانت هي التي نبهت الأنثروبولوجيين المحترفين إلى ما تمثله ثقافة الأبورِجين في أستراليا من أهمية بالغة وما تحتله من مكانة مركزية في محاولة إعادة بناء التاريخ البشري، خصوصا وأن هذه المعلومات جاءت في وقت كانت فيه الأنثروبولوجيا تحاول أن تحدد لنفسها ميدانا بحثيا له مناهجه وتوجهاته النظرية وموضوعا محوريا له مكانته اللائقة بين العلوم.

معظم المعلومات الإثنوغرافية التي أوردها أولئك الرواد الأوائل من الرحالة والمستكشفين عن الأبورِجين أتت متناثرة ومبثوثة هنا وهناك في ثنايا تقارير تتناول أساسا المعالم الجغرافية والأحوال البيئية والتضاريس والثروات المعدنية وما إلى ذلك من معلومات تتعلق بالنشاطات الاستكشافية والاستيطانية وفرص الاستثمار التجاري ومصادر الثروات الطبيعية. كما أن إيراد المعلومات الإثنوغرافية في تلك التقارير لم يكن هدفا في حد ذاته ولم يقصد به خدمة العلم بقدر ما قصد به التعرف على طبائع الأبورِجين من أجل معرفة كيفية التعامل معهم وتدجينهم أو لما تحمله هذه المعلومات من غرائبيات وعجائب تبعث على الدهشة والاستغراب نظرا لبدائيتها الموغلة في التوحش مما زاد من تعطش الرجل الأبيض لقراءة المزيد عنها. إلا أنها مع ذلك لا تخلو من الفائدة إذا تم التعامل معها ببصيرة وبرؤية نقدية تميز الغث من السمين، وكانت هي الذخيرة الوحيدة المتاحة للأنثروبولوجيين في بداية تعرفهم على ثقافة الأبورِجين.

مع ازدهار نظرية التطور الثقافي والاجتماعي على يد الرواد الأوائل من أمثال لِوِس هنري مورغَن وإدوارد تايْلُر ومع بداية تبلور النظريات الأنثروبولوجية حول أصل الشعور الديني وجذور العائلة وغير ذلك من مؤسسات المجتمع البشري اتجهت الأنظار نحو أستراليا وبدأ البحث الإثنوغرافي الوصفي لثقافات الأبورِجين يأخذ اتجاها ممنهجا ومؤطرا بأطر نظرية. ويعود فضل الريادة في هذا الاتجاه إلى خمسة

أشخاص أولهم رُوْث W. E. Roth الذي نشر عام ١٨٩٧ كتابا عنوانه **دراسات إثنولوجية عن الأبورِجِين في شمال غرب وسط كوينزلاند** *Ethnological Studies in North-West Central Queensland Aborigines*. ثم تلاه الدكتور هَاوِت A. W. Howitt والقس لورِمَر فِيْسُن Lorimer Fison وعالم الأحياء بالْدْوِن سْبِنْسَرBaldwin Spencer والحاكم الإداري فْرانْسَس جيمز غِيلِن F. J. Gillen. عمل هَاوِت وفِيْسُن معا بتوجيه من مورغَن الذي اتخذا منه ملهما ومرشدا لهما عن طريق المراسلة وتبنيا نظرياته عن أنساق القرابة والزواج وانتهى بهما المطاف بأن أخرجا كتابا اشتركا في تأليفه عنوانه **الكاميلَروي والكُرناي** (1880) *Kamilaroi and Kurnai*. كذلك سْبِنْسَر وغِيلِن عملا معا بتوجيه من جيمز فْريْزر عن طريق المراسلة وأخرجا معا كتابين هما *The Native Tribes of Central Australia* (1899) و *The Northern Tribes Of Central Australia* (1904). كما ألف هَاوِت بمفرده كتابا عنوانه *The Native Tribes of South-East Australia* (1904) وكذلك سْبِنْسَر ألف بمفرده كتابا عنوانه *Native Tribes of the Northern Territories of Australia* (1914).

وكان لكل هذه الكتب التي ألفها أولئك الرواد وآخرين قبلهم وبعدهم لا يتسع المجال لذكرهم أثرها البالغ في بلورة النظريات الأنثروبولوجية عن الطوطمية وعن النسق القرابي والتنظيم الاجتماعي، خصوصا كتاب سْبِنْسَر وغِيلِن عن قبائل صحراء وسط أستراليا **القبائل المحلية وسط أستراليا** *The Native Tribes of Central Australia* الذي وثقا فيه ثقافة قبيلة الأَرُنْتا Arunta (وتكتب أحيانا Aranda) وما جاورها من قبائل الصحراء الأسترالية، وإن كانا في مقدمة هذا الكتاب وكذلك في مقدمة كتابهما الآخر (1904: xiv) تحدثا عن الأبورِجِين وثقافتهم بصفة عامة. وقد عول كل من فْريْزر ودوركهايم وفْروْيْد بشكل أساسي على هذه الكتب تحديدا، كما عولنا عليها نحن في هذه المعلومات والرسومات التي نوردها في هذا الفصل. وسوف ينصب اهتمامنا في المقام الأول على الشعائر والطقوس والمعتقدات المتعلقة بالتكاثر أو ما يسمى بلغة الأَرُنْتا *intichiuma*، وتلك المتعلقة بالترسيم أو العبور عند البلوغ، أو ما يسمى initiation ceremonies، كما وصفها سْبِنْسَر وغِيلِن بشكل مفصل في الفصول السادس والسابع والثامن والتاسع من كتابهما الأول (1899) وفي الفصلين التاسع والحادي عشر من كتابهما الثاني (1904) كما وصفها كل من سْبِنْسَر في الفصل الثالث من كتابه (1914) ووصفها هَاوِت في الفصلين التاسع والعشر من كتابه (1904). وسوف نركز تحديدا على طقوس الترسيم وطقوس التكاثر *intichiuma* عند قبيلة الأَرُنْتا ومعتقداتها الطوطمية لأنها هي التي حظيت فيما بعد باهتمام بالغ من الباحثين. وعموما، فإن عادات قبيلة الأَرُنْتا وموروثها الديني وما يتعلق به من طقوس وشعائر لا تختلف كثيرا عن القبائل الصحراوية الأخرى المحيطة بها. يرى سْبِنْسَر وغِيلِن أن هذه القبائل بحكم عزلتها الجغرافية الممتدة لفترة طويلة في قلب القارة وعدم تعرضها للمؤثرات الخارجية احتفظت بأكثر العادات والمعتقدات بدائية من بين القبائل الأخرى –خصوصا القبائل الساحلية– ولذلك فلربما أنها ما زالت تحتفظ بالعادات والتقاليد التي كانت تشكل في الماضي السحيق إرثا ثقافيا مشتركا بين كل قبائل الأبورِجِين في أستراليا قبل تفرقها وتشتت مواطنها في أنحاء القارة المترامية الأطراف (Spencer & Gillen 1904: xi-xiii, 20). وأكثر ما يصدق ذلك على شعائر الترسيم والعبور وطقوس التكاثر *intichiuma* والمعتقدات المتعلقة بعصر الخلق الأسطوري وبالحمل والولادة والموت وتقمص أرواح الأسلاف reincarnation والتي سنتعرض لها كلها في الأسطر اللاحقة.

استيعاب نظريات فْريْزر ودوركهايم وفْروْيْد وغيرهم عن الدين وفهمها على حقيقتها يتطلب منا التطرق

لتفاصيل الممارسات الطوطمية عند أولئك الأبورِجِين في أستراليا والإبحار عميقا في لجج الطقوس والشعائر التي كانوا يمارسونها والتي قد يستغرق أداء البعض منها مدة قد تصل إلى ثلاثة شهور تقام فيها الطقوس والرقصات يوميا (Spencer & Gillen 1904: 177ff, 297-9). ولكن قد يكون من المفيد أولا أن نلقي نظرة عامة ومختصرة غاية الاختصار على ثقافة الأبورِجِين لإعطاء القارئ خلفية كافية تعينه على تصور السياقات الثقافية والاجتماعية التي أفرزت هذه الطقوس والشعائر والممارسات التي سنتطرق لها بعد ذلك وعلى تصور المحيط الفكري الذي أفرز النظريات المتعلقة بها. ونطمح إلى أن يستشف القارئ من خلال هذه اللمحة مدى بدائية الأبورِجِين ومدى البون الشاسع الذي يفصل بينهم ثقافيا واجتماعيا وبين المجتمعات الأخرى، حتى المجتمعات البدائية أو تلك التي بدأت تخطو أولى خطواتها نحو حياة الاستقرار ومزاولة الزراعة.

عاش الأبورِجِين في القارة الأسترالية في عزلة تامة أطبقت عليهم طيلة عشرات الآلاف من السنين التي سبقت اكتشاف قارتهم ولا يبدو أن لهذه القبائل قبل ذلك أي صلة تذكر بالعالم الخارجي. صحيح أن الهنود الحمر في الأمريكتين عاشوا عزلة ثقافية في قارتهم التي تحيط بها مياه المحيطات وتفصلها عن بقية أرجاء العالم مما منعهم من الاحتكاك والتثاقف مع المجتمعات الأخرى، لكنهم مع ذلك يعتبرون شعوبا متقدمة نسبيا مقارنة بالأبورِجِين لأنهم كانوا يبنون أكواخا وبيوتا ويمارسون الزراعة البدائية ويرتدون ملابس تستر عوراتهم وغير ذلك من مؤشرات التحضر الأخرى. وفي أفريقيا وجدت قبائل بدائية لكنها كانت على احتكاك مع قبائل أكثر تطورا منها. أما في أستراليا، حيث العزلة المطلقة، فإن كل شيء هناك يبدو في منتهى البدائية، حتى الحياة الفطرية بحيواناتها ونباتاتها هي من الأجناس البدائية التي صمدت وبقيت في تلك القارة بينما انقرضت في بقية أنحاء العالم مثل حيوان الباندا والبلاتيبوس platypus والأبوسوم opossum والكنغر والولابي wallaby، وهو حيوان جرابي صغير من نوع الكنغر، وطائر الأيمو emu، وهو طائر لا يطير شبيه بالنعامة إلا أنه أصغر حجما ورقبته أقصر.

قبل اكتشاف الرجل الأبيض لأستراليا كان الأبورِجِين يعيشون في العصر الحجري يهيمون على وجوهم عراة رجالهم ونساؤهم ويقتاتون على الصيد والجمع والالتقاط. تقع على الرجال مهمة صيد الطيور والحيوانات الكبيرة من الكنغر إلى الأرنب إلى طائر الإيمو، بينما تقع على النساء مهمة جمع النباتات وبيض الطيور والتقاط الحبوب والحشائش وصيد السحالي والجرابيع والضباب والزواحف والديدان. وجميع أدواتهم مصنوعة من الحجر أو الخشب أو العظام، ولا توجد لديهم أواني لطهي الطعام ولا لغلي الماء، والطعام الذي لا يستطيعون أكله نيئا مثل اللحم وبعض أنواع الخضار يعالجونه بشيّه على النار.

وكل ما يصيدونه أو يجنونه يستهلكونه مباشرة ولا يبقون شيئا للغد، إذ لا يوجد لديهم مفهوم التخزين والتكديس ولا التفكير بالمستقبل وإعداد العدة له. ولم يستأنسوا من الحيوانات إلا كلب الدنغو dingo حيث لا يعرفون شيئا عن تدجين النبات ولا استئناس الحيوان، بل لقد وصل بهم الحال إلى درجة أنهم لا يقرون بأن للجماع أي علاقة بالحمل والولادة ولا يعرفون أن النباتات تنبت من البذور ولا يوجد لديهم كلمة تشير إلى أي عدد يتعدى الرقم "ثلاثة" (Spencer & Gillen 1904: xiv). وبطبيعة الحال فإنهم ما كانوا يعرفون شيئا عن صناعة الفخار ولا التعدين ولا تشييد المساكن. كل ما هنالك أنهم يصنعون لأنفسهم عشش ومصدات عن الريح مصنوعة من لحاء الأشجار والأغصان وأوراق الحشائش على شكل نصف دائرة بحيث يكون الجانب المحدب هو الجانب الخارجي لصد الريح ويكون الجانب المقعر مكانا للسكنى يلوذون به متحلقين حول موقد النار. وبالرغم من برودة ليالي الشتاء القارسة فإنه لم يخطر لهم أن يتخذوا من جلود الحيوانات المتوفرة في قارتهم ولا من فرائها أردية يلبسونها ولا أغطية يتدثرون بها لاتقاء البرد ويكتفون بإيقاد نيران صغيرة يضطجعون حولها عند النوم لتدفئهم. كما أنه لا يوجد لديهم أي سلطة سياسية ولا ولاة أمر عدا ما تفرضه علاقات القربى من طاعة الصغير للكبير والمرأة للرجل. وجميع القبائل الأسترالية تمارس السحر بكافة أشكاله وتمارس وأد الأطفال، خصوصا إذا ولد الطفل بعد ولادة الطفل الذي قبله بفترة قصيرة. وإذا ولدت المرأة توأما قتلوهما معا. ويتم القتل إما بمغادرة القطين وترك الطفل هناك ليلقى حتفه أو ملء فمه بالتراب. لكن ما أن ترضع الأم طفلها الرضعة الأولى فإنه لا يجوز لها قتله. وهم لا يرون أن في قتل الرضّع خسارة لهم ولا فناء حقيقيا للرضيع الذي تبقى روحه تنتظر العودة مرة أخرى للحياة في جسد طفل آخر (Spencer & Gillen 1904: 608-9). والبعض منهم كانوا يأدون أطفالهم خشية إملاق ويأكلون لحوم البشر من أعدائهم والموتى من أقربائهم (Howitt 1904: 748-56)، ويمارسون أنواعا من الزيجات تُعتبر في أعراف الشعوب المتطورة إباحية جنسية. لذا كان الأنثروبولوجيون ينظرون إليهم على أنهم يمثلون أدنى درجات الوحشية والبدائية نظرا لانعزالهم في قارتهم الصغيرة عن العالم وعدم تعرضهم لأي مؤثرات خارجية فحافظوا على بدائية الجنس البشري، خصوصا في قلب القارة ذي الطبيعة الصحراوية والمناخ الجاف والبيئة القاحلة والذي تعزله الجبال والأغوار والأخاديد عن المناطق الساحلية. وتغطي الصحاري القفرة الوعرة ثلث مساحة القارة تقريبا، خصوصا في جنوب الوسط حيث

الكثبان الرملية الحمراء والأدغال الشوكية وحيث يعيش السكان هناك على صيد السحالي والثعابين والببغاوات والقطط البرية، إضافة إلى حبوب النباتات البرية والدرنات والجذور التي تحفرها النساء وتقتلعها مستخدمة في ذلك عصا الحفر digging stick وتجمع محصولها في طبق خشبي صغير مستطيل الشكل ومقعّر ينحتونه من أغصان الشجر ويسمونه بِيتْشي *pitchi*. وبالإضافة إلى بدائية التكنولوجيا والثقافة المادية فإن الأبورِجِين تبدو عليهم من الناحية التشريحية والهيكلية بعض ملامح البدائية، خصوصا فيما يتعلق بشكل الجمجمة والفكين وحجم المخ (Elkin 1964: 4). باختصار، هنا نجد الحضارة البشرية في مرحلتها "اليرقية"، كما يقول فْريْزر (Frazer 1899: 647-8).

طريقة حمل طبق البِيتْشي pitchi والمرأة في الصورة اليسرى تحمل معها أيضا رضيعها والعصا مدببة الرأس التي تستخدمها في نبش الدرنات والجذور القابلة للأكل من تحت الأرض

أستراليا قارة كبيرة كانت تسكنها مئات القبائل قبل وصول الرجل الأبيض لها. ويقدر عدد سكانها الأصليين حين اكتشافها بحوالي ٣٠٠,٠٠٠ موزعين على حوالي ٥٠٠ قبيلة، وتعداد أفراد القبيلة يتراوح في مجموعه من المئات إلى الآلاف وكذلك مساحة موطنها تتراوح من المئات إلى الآلاف من الكيلومترات. ومفهوم القبيلة هنا لا يعني بالضرورة أن أبناءها انحدروا من سلف واحد ولا يعني أنهم يشكلون كيانا سياسيا متماسكا، وإنما كل ما يعنيه هو أنهم يتكلمون لغة واحدة ويقطنون منطقة واحدة ويشتركون في العادات والتقاليد. ولكل قبيلة اسمها ومواطن تجوالها ولغتها الخاصة وعاداتها وتقاليدها المشتركة التي تتميز بها، وإن كانت العادات والتقاليد بين هذه القبائل متقاربة إلى حد بعيد (Spencer 1914: 34-5; Spencer & Gillen 1904: 14-5). وقد تتداخل القبائل على الحدود فيما بينها مما يجعل من الصعب أحيانا الفصل بين هذه القبيلة وتلك والجزم ما إذا كنا نتكلم عن قبيلتين مستقلتين أو عن فرعين لقبيلة واحدة.

وتشتمل القبيلة الواحدة على عدد من العشائر الطوطمية كل منها لها طوطم تتسمى به، وغالبا ما يكون أحد الحيوانات أو النباتات التي تتوفر في منطقتها. والعشيرة أكبر وحدة قرابية يشعر أفرادها أنهم ينتمون لنفس الطوطم. وبما أن النسب الطوطمي يتم تتبعه في الغالب من خط الأمهات اللاتي يلتحقن بأزواجهن بعد الزواج ويتفرقن بين النجوع فإن العشائر الطوطمية ليست جماعات يضمها موطن واحد وإنما يوجد أفرادها مشتتين بين القبائل والجماعات المحلية حيث تقيم أمهاتهم وما يجمعهم هو الانتماء الطوطمي.

ونظرا لمحدودية الموارد وبدائية التكنولوجيا فإنه ليس بإمكان أفراد العشيرة أن يظلوا مجتمعين في رقعة جغرافية واحدة طوال السنة، بل إن العشيرة تتقسم إلى العديد من الجماعات المحلية local groups التي يشكل كل منها خليطا hordes أو نجعا band يختلف حجمه بحسب توفر مصادر الغذاء، ويتراوح حجم النجع الواحد أو "القطين" أو "الفِريق" (كما يسميه البدو عندنا) من ١٠ إلى ٦٠ فردا، وقد يقارب المائة في المناطق الغنية بالمياه ومصادر الغذاء، ويتمتع كل منها باستقلالية تامة عن بقية النجوع التي تشكل في مجموعها قبيلة من القبائل. وغالبا ما يكون تجمع الخليط بالقرب من الآبار والخباري ومصادر المياه التي تحتل هي والمراكز الطوطمية المقدسة المتناثرة في أرجاء موطن العشيرة أهمية خاصة في نظر أبناء العشيرة، خصوصا أن الكثير من العشائر يرون أن قيعان الآبار والبحيرات هي المستودع الذي تأتي منه أرواح المواليد الجدد والمكان الذي تعود إليه الروح بعد موت الإنسان. ويمكننا أن نفرق بين مدلول العشيرة ومدلول النجع، في أن العشيرة تشير عادة إلى روابط النسب الطوطمي بينما يشير النجع إلى العيش المشترك، أي إلى مجموع الأفراد الذين يرحلون وينزلون مع بعضهم ويتعاونون في تحصيل المعاش وضرورات البقاء. ويتألف النجع أساسا من أبناء الرجل الذين ينتسبون له ويرتبطون مع بعضهم البعض بعلاقة الدم، فالإبن ينتمي لموطن أبيه. وبحكم ممارسة الأستراليين للزواج الخارجي فإن النجع يشمل أيضا زوجات الرجال اللاتي ينتمين لنجوع أخرى لكنهن يلتحقن بنجوع أزواجهن بعد عقد القران؛ هذا بالإضافة إلى بعض الضيوف والزوار من الأقارب والأرحام الذين ينتمون لعشائر أخرى.

ولكل خليط من هذه الخلوط موطن يخصه ضمن أرض القبيلة يتجول فيه أبناؤه طلبا للماء والقوت ولا يسمحون لأحد غيرهم بالتعدي عليه إلا بإذن منهم، وتتراوح مساحته من ١٠٠ إلى ٢٠٠ كيلومتر مربع. والجميع شركة فيما تجود به الطبيعة من خيرات في موطنهم من صيد البر والبحر ومن بقول الأرض والماء

ومختلف الموارد الطبيعية، ولا وجود لديهم لمفهوم الاستحواذ أو الملكية الخاصة.

وقطين الجماعة المحلية ينقسم إلى قسمين؛ قسم للعوائل وقسم للعزاب والفتية الذين لم يتزوجوا بعد. وإذا حل ضيف بالقطين فإنه يبقى مع العوائل إن كان قد أحضر زوجته معه، أو يذهب إلى قسم العزاب.

ولا يستقر أفراد النجع في مكان واحد بل يتنقلون داخل موطنهم من منطقة لأخرى على مدار العام بحثا عن مصادر العيش وضرورات الحياة. وحجم النجع ومدار تجواله تحكمه دورة المواسم والفصول واحتمالات توفر الماء والغذاء في أماكن معينة من فصل إلى آخر من فصول العام، لكنهم عادة لا ينتقلون مجتمعين وإنما كعوائل منفردة. وتشكل العائلة النووية اللبنة الأساسية في البناء الاجتماعي والتي تشمل الرجل وزوجته أو زوجاته وأبنائه وبناته القصّر، وربما والديه العجائز أو أحدهما وكذلك إخوانه وأخواته الصغار. وتقضي العائلة معظم وقتها تتنقل في موطنها، كما أنها بكافة أفرادها أو البعض منهم قد يذهبون بين الحين والآخر لزيارة أرحامهم أو أقاربهم في النجوع الأخرى ويمضون بعض الوقت معهم. والزواج الخارجي يعني أن الفرد تربطه علاقات قربى ورحم مع العديد من النجوع الأخرى خارج النجع الذي ينتسب له. لذا نجد العوائل كثيرة التنقل من نجع لآخر داخل قبيلتها. ومن المتعارف عليه عندهم أنه إذا أجدبت أحد المناطق يستطيع أهلها اللجوء إلى جماعة مجاورة تتوفر في منطقتها مصادر الغذاء.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه إضافة إلى العلاقة التي تربط أفراد كل نجع مع أفراد النجوع الأخرى التي تنتمي لقبيلتهم، فإنهم كذلك يعتبرون أن أفراد أي عشيرة طوطمية أخرى تتسمي باسم طوطمهم أيضا أقرباء لهم، حتى ولو كانت العشيرة تنتمي لقبيلة أخرى. فالعشائر التي تتسمى باسم الطوطم نفسه يعتبرون أنفسهم أقرباء حتى ولو كانوا من مناطق متباعدة جدا ومن قبائل مختلفة ويتكلمون لغات متباينة (Durkheim 1965: 123). ونحن هنا لا نتكلم عن قرابة إسمية بل قرابة يترتب عليها التزامات متبادلة بما في ذلك المساعدة ومد يد العون وعدم السماح بالتزاوج، لأن الكثير من العشائر الأسترالية تتبنى الزواج من خارج العشيرة.

ومجموع مواطن الجماعات المحلية أو النجوع التي تنتمي لقبيلة واحدة هي ما يمكن تسميته موطن القبيلة، وإن كانت الحدود بين القبائل المتجاورة متداخلة. والنجوع، وإن كانت تنتمي لقبيلة معينة بحكم الجوار واشتراكها معها في اللغة والتقاليد، إلا أنها مستقلة تماما في إدارة شؤونها ونزاعاتها وما شابه ذلك. كما تفتقر القبيلة لأي زعامة قبلية أو تنظيم سياسي يوحدها وينسق جهودها ويوجه تحركاتها. ولا يلتئم شمل القبيلة بكل عشائرها وكامل أفرادها أو يجتمع عددا من نجوعها إلا في المناسبات والاحتفالات التي تصاحب إقامة الشعائر والطقوس التي يؤدونها في مواسم محددة وتستمر لعدة أيام، وربما لعدة أسابيع، وهذا ما سوف نتحدث عنها لاحقا ([Radcliffe-]Brown 1913; Radcliffe-Brown 1930/31).

وقد آلت ثقافة الأبورِجِين إلى الاضمحلال وشارف هذا الجنس على الانقراض بعد أن عاثت فيهم الأمراض القاتلة جراء احتكاكهم بالجنس الأبيض الذي حمل معه أوبئة لم تتحملها مناعة أجسادهم لأنهم ما كانوا يعرفونها من قبل مثل الجدري والسفليس (الزهري).

وكما قلنا فقد ركز سْبِنْسَر وغِيلِن في دراستهم على قبيلة الأَرُنْتا، خصوصا عشيرة تتسمى باسم دودة الوتشيتي Witchetty Grub وتتخذ منها طوطما لها، وهذه تعد من أكبر عشائر الأَرُنْتا إلا أنه تضاءل عدد أفرادها في الآونة الأخيرة وتقلص إلى حوالي أربعين شخصا وتحتل منطقة تقدر مساحتها بحوالي

١٠٠ كم٢. شعائر وطقوس العشائر الطوطمية عند الأَرُنْتا والقبائل الصحراوية المجاورة لها تتعلق كلها بعصر يسمونه عصر *alcheringa* أو *wingara* أو *mungai* وبعضهم يسميه *mura* (Howitt 1904: 474-88) *mura*، وهذا مصطلح محلي يشير إلى مفهوم يستحيل ترجمته أو فهمه وتصوره لغير الأبورِجِين، ولكن فقط من باب تقريبه لمفاهيمنا فلنسمه عصر الخلق الأسطوري ويترجم في اللغة الإنجليزية إلى العصر الحالم Dreaming. وحيث أن الخلق عملية مستمرة فإنه يصعب القول بأن عصر الخلق الأسطوري هو في الزمن الماضي، بل الأصح أنه خارج محدوديات الزمان والمكان، أو هو الماضي والحاضر والمستقبل في آن واحد (Spencer & Gillen 1904: 145-6). تقول أساطيرهم إنه في البدايات الموغلة في القدم وقبل وجود البشر وتشكل العالم على الشكل الذي هو عليه الآن كان هناك في أقصى السماء الغربية كائنان تكونا من العدم كل منهما خلق نفسه بنفسه ويسمى أُنغَمبيكولاّ *Ungambikula*. وفي أقصى الشرق لاحظا كائنات من أشباه البشر على شكل كتل متكورة غير مكتملة التكوين وفي مرحلة تحولية تمازجت فيها سمات البشر مع سمات النبات والحيوان. لم تكن الأطراف والأعضاء والحواس لدى هذه الكتل الحيوية متمايزة بعد ولا منفصلة عن الجسد المتكور، وإن كان يمكن تبيّن معالمها لكن بصورة باهتة (Spencer & Gillen 1899: 388-422; 1904: 145-53). وقام كل من هذين الأُنغَمبيكولاّ بشحذ مديته المصنوعة من حجر الصوان وتشريط هذه الكتل الحيوية لتحديد أعضاء الحواس والأطراف الملتصقة بالجسد وفصلها لتأخذ شكلها الطبيعي، كما فرضا أصابع اليدين والرجلين وشَقّا العيون والفم وضغطا بالشاهد والوسطى على مقدمة الوجه لثقب المنخرين، ثم ضغطا بالشاهد والسبابة على الشفتين ليفتحاهما ويغلقاهما عدة مرات ليمنحاهما مرونة الحركة لفتح الفم وإغلاقه من أجل الأكل والكلام. وبذلك تحولت تلك الكتل إلى رجال ونساء من الآدميين الذين هم الأسلاف الأسطوريين للبشر.

عمليات الخلق هذه تذكرنا بشعائر طقوس الترسيم عند البلوغ التي لا تكتمل آدمية الفرد ورجولته إلا بعد تجاوزها والتي تشتمل على العديد من العمليات الجراحية مثل خلع الأسنان والختان وغيرها (Durkheim 1965: 158; Howitt 1904: 655-6). لكن أولئك الأسلاف الأولين مع ذلك لم يفقدوا صلتهم ولا ارتباطهم الحيوي والحميمي بالنباتات والحيوانات التي يفترض أنهم تحدّروا منها واتخذوا منها أسماءهم، فهم يظهرون في الأساطير أحيانا كبشر تطبعوا بطباع الحيوانات وأحيانا أخرى كحيوانات تطبعت بطباع البشر. فالسلف الذي تحول من الثعبان مثلا تتحدث الأساطير عن سلوكه وتصرفاته كما لو أنه من البشر لكنها مع ذلك حينما تتحدث عن طريقته في المشي والحركة مثلا تقول عنه إنه يزحف كما تزحف الثعابين ولا يسير كما يسير البشر، والذي تحول من حيوان الكنغر يقفز وينط ويتحرك كما يتحرك الكنغر على قوائمه الخلفية، والذي تحول من طائر الإيمو يبيض ولا يلد. وهكذا نجد أحيانا أن الصفات الحيوانية تطمس الصفات البشرية وأحيانا أخرى يكون العكس تبعا لطبيعة النشاط الذي تتحدث عنه الأسطورة المتعلقة بهذا الجد الأسطوري أو ذاك (Spencer & Gillen 1899: 119). ومنذ أن استوى خلقهم شكل أولئك الأسلاف الأسطوريون عشائر طوطمية متزواجة يسكنون في مساكن اتخذوها من العشش ومصدات الريح، مثلهم مثل الأبورِجِين، ويعيشون عيشة لا تختلف عن عيشة البشر على شكل جماعات ترحالية بحثا عن الماء والغذاء يحملون السلاح ويصيدون، لكنهم في أحيان أخرى يُصادون كما تُصاد الحيوانات. وطفقت تلك العشائر كل منها تجوب القارة الأسترالية في كل الاتجاهات جيئة وذهابا بالطول والعرض من أقصاها

إلى أقصاها ويحققون المعجزات في ترحالهم وفي كل مكان تطأه أقدامهم، حيث كانت لهم من القدرات الخارقة ما يسمو على قدرات البشر العاديين، علاوة على أنه يمكن للواحد منهم أن يطير أو يمشي على سطح الأرض أو في باطنها وأن يوجد في أزمنة مختلفة وعدة أمكنة في ذات اللحظة. من أولئك الأسلاف الذين تمتزج فيهم صفات البشر مع صفات النبات أو الحيوان ورث البشر انتمائاتهم الطوطمية حيث أن كل عشيرة تتبنى طوطما لها ذلك الحيوان أو النبات الذي تحول منه سلفها الأسطوري (Howitt 1904: 475-88; Spencer & Gillen 1899: 119-25; 1904: 145-59).

وحيث أن المجموعة أو حتى الفرد الواحد من أولئك الأسلاف يعبر في ترحاله العديد من مواطن العشائر والقبائل المختلفة والمتباعدة فإن الأسطورة المتعلقة بحياته ومعجزاته لا تكتمل إلا إذا جمعنا شظاياها المبعثرة هنا وهناك وشذراتها المتناثرة على كل الطرق التي عبرها وبين كل القبائل التي مر بها والمحطات التي توقف فيها. وأثناء تجوالهم الذي لا يفتر كان كل واحد منهم يحمل معه قطعة من قطع التشورينغا *churinga* المقدسة التي تحتوي على جزء من روحه وعنصر الحياة فيه. قطعة التشورينغا هذه عبارة عن لوح مصطح أملس وصغير من الحجر أو الخشب يكون بيضاوي الشكل أو مستطيل ورقيق لا يزيد حجمه عن بضعة سنتيمرات. ومما يميز التشورينغا عن غيرها من الأخشاب والأحجار ويكسبها قدسية خاصة ما ينقشونه عليها من خطوط ودوائر وأشكال أخرى تقليدية ترمز للطوطم وتكون على شكل نُقَط ودوائر وأنصاف دوائر وخطوط بعضها مستقيم وبعضها متعرج، وكل شكل من هذه الأشكال يرمز لحدث معين يعود إلى ذلك السلف الطوطمي وإلى عصر الخلق الأسطوري، وتختلف معانيها من عشيرة لأخرى، ولذلك يستحيل معرفة المغزى لأي منها دون الرجوع لأحد عقلاء العشيرة من كبار السن (Spencer & Gillen 1899: 143-52). فقد تعني النقط آثار الضفدع وخطواته أثناء القفز، والدائرة التي بداخلها نُقَط بيضة طائر الإيمو، والدائرة المثقوبة عين الطوطم، وأنصاف الدوائر أضلاعه. وحيثما حل الأسلاف خلفوا وراءهم بعضا من هذه القطع المقدسة بما تتضمنه من عنصر الحياة والروح الذي لا يفنى أبدا ولا يضمحل مهما طال الزمن (Spencer & Gillen 1904: 205). كما أن أماكن حلولهم ونزولهم وتحركاتهم يمكن للبشر مشاهدتها والتعرف عليها من خلال التكوينات التضاريسية الغريبة التي تركوها أثناء مزاولتهم لنشاطاتهم المختلفة على سطح الأرض من وديان وسهول ومغاور وكهوف وكتل صخرية وجبال وشعاب وغيرها من تشكيلات طوبوغرافية وتضاريسية غريبة ملفتة للنظر، أو من أشجار معمرة تخرج أشكالها عن المألوف. فالأساطير تقول إن المعالم التضاريسية والطوبوغرافية تشكلت جراء نشاطات أولئك الأسلاف. فالأنهار والوديان مثلا تشكلت من زحف تلك الحيات الطوطمية، وكتل الصخر

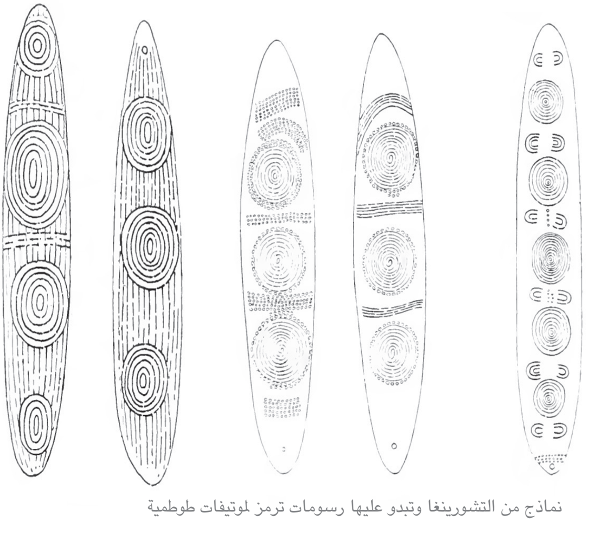

نماذج من التشورينغا وتبدو عليها رسومات ترمز لموتيفات طوطمية

الجلمودية المدورة هي بيض الأسلاف من الإيمو، والصدوع في الجبال نتجت من قوة ضرب السلف الكنغر بذيله عليها، وهكذا. وإذا انتهت مهمة أي من أولئك الأسلاف في عمليات نشأة الكون وخلق البشر وتشكيل المعالم الجغرافية على سطح الأرض غاص إلى باطنها واختفى مخلفا وراءه ما كان يحمله معه من قطع التشورينغا التي تحل فيها روحه ومخلفا كذلك ما يسمى النَّنْجا *nanja* المقدسة، وهي تلك المظاهر الطوبوغرافية أو النباتية التي قلنا إنها تدل على وجوده والتي تحل فيها النسخة المزدوجة من روحه. ولكل سلف روح أصلية يسمونها *ulthana* ونسخة مزدوجة *arumburinga* من الروح تحل في النَّنْجا.

وقد تحولت أماكن تعريص الأسلاف الغابرين إلى بقع مقدسة ومراكز طوطمية كل مركز منها يخص طوطما بعينه ويمتد تأثيره وقدسيته على المنطقة المحيطة به (Spencer & Gillen 1899: 119-23, 126). لذا فإننا لو تتبعا خط سير أي من أولئك الأسلاف سوف نجد متناثرا هنا وهناك في موطن كل عشيرة من العشائر أماكن مقدسة في مواقع محددة، وهي عادة عبارة عن كهوف أو مغاور متناثرة في صدوع الجبال النائية أو بين الكثبان الرملية في قلب الصحراء. ويجتهد الأبورِجِين في إخفاء هذه المراكز حتى يصعب على الغرباء الاهتداء إليها لكن مواقعها دائما تكون بالقرب من مظهر متميز من المظاهر الطوبوغرافية أو الطبيعية. تحتوي هذه الصدوع والمغاور على مستودعات يخبؤون فيها قطع التشورينغا المقدسة التي يقولون إنها تعود إلى عصر الخلق الأسطوري. ولا تظهر قطع التشورينغا من مخبئها إلا بإذن من رئيس العشيرة في المناسبات الشعائرية والطقوسية المهمة حينما يصفّونها على منصة خاصة تعد لها من الأغصان وفروع الأشجار والأوراق. وجود التشورينغا يحيل هذه المنصة إلى بقعة مقدسة. وحينما تستخدم التشورينغا لهذا الغرض يطلونها بنفس الطلاءات التي يدهنون بها أجسادهم، وهي مزيج من الجبس والفحم والغرين الأصفر والمغر الأحمر (أكسيد الحديديك ochre) المخلوط بالدهون والشحم المذاب، ولكل عشيرة رسوماتها وأشكالها التي تميزها عن غيرها. وبطبيعة الحال، فإن النساء والأطفال لا يحضرون هذه المناسبات ولا يشاركون فيها إلا من مسافة بعيدة لا تسمح لهم برؤية التشورينغا. وتقع على

قطع التشورينغا وقد صُفّت على منصّة معدّة من الأغصان وفروع الشجر

عاتق كل عشيرة طوطمية مهمة الحفاظ على هذه القطع المقدسة وحمايتها من السرقة، لأن روح كل فرد من أفرادها معلقة بقطعة من قطع التشورينغا المحفوظة في ذلك المستودع التي تعد سرقتها أكبر كارثة يمكن أن تحل بالعشيرة (Spencer & Gillen 1899: 134-6, 154)، من هنا جاء الحرص على إخفائها والتكتم على موقعها وعدم البوح بمكانها إلا للرجال الراشدين والمرسّمين من أبناء العشيرة. وأحيانا يحمل الرجل من كبار السن قطعته من التشوريغا بعد أن يلفها بأوراق الحشائش والأعشاب حتى لا يراها الآخرون، ويعتقد أن حمله لها يجعله موفقا في الصيد ويمنحه الشجاعة والثبات ويسدد ضرباته نحو الأعداء، وفقدانه لهذه التشورينغا يعني فقدانه لكل هذه الفضائل. ولشدة إيمانهم ببركات التشورينغا فإنه حينما يتقابل خصمان ويعرف أحدهما الذي لا يحمل التشورينغا أن الآخر يحملها فإنه تخور قواه وينهار ويستسلم. ويمسحون بها على الجروح لتبرأ وعلى السقيم ليُشفى وعلى الوجه لينبت شعر الذقن والشارب ويدفنونها في الأرض لتساعد على نمو النباتات التي يتغذون عليها (Spencer & Gillen 1899: 135, 248, 546). وتختلف البركات التي تمنحها التشورينغا من قطعة لأخرى تبعا لروح وطبيعة السلف الأسطوري الذي تمثله وما يتميز به من قدرات خارقة تختلف وتميزه عن غيره من الأسلاف، ومن يمتلك هذه التشورينغا من الأحياء هو نسخة وتجسيد لذلك السلف الذي كانت أصلا تخصه. وأنجع طريقة للحصول على بركة التشورينغا هو مسحها بالدهن أو ذر مسحوق المغر الأحمر عليها وتمسيحها باليدين وكذلك مسح البطن بها، وأحيانا يلصقون عليها الريش بكميات كثيفة ويلوحون بها ليتطاير الريش في كل الاتجاهات فتعم بركتها جميع الحاضرين وتنتشر حيثما وقع الريش (Spencer & Gillen 1899: 135; 1904: 272-8).

ويعتبر كل مستودع من مستودعات التشورينغا والمنطقة المحيطة به حرما مقدسا تجوس فيه أرواح الأسلاف الأسطوريين وكل من لجأ إليه من بشر أو من حيوان فهو آمن، وحتى شجره لا يجوز المساس به. ولا يجوز فيه حمل السلاح أو الشجار. وإذا أراد أفراد العشيرة زيارته فعليهم نزع أسلحتهم وزينتهم قبل الاقتراب منه. هذه الأماكن المقدسة هي الأماكن التي تقام فيها الطقوس التي يدعو لها ويشرف عليها شيخ العشيرة الطوطمية. ويحرّم على الغرباء وعلى النساء والأطفال الذين لم يصلوا سن الرشد ولم يكملوا شعائر الترسيم بعد أن يطلعوا على التشورينغا أو يروها أو يمسوها أو حتى يقتربوا ولو من بعيد من المكان المخبأة فيه. ولكل أنثى تشورينغا تخصها مثل الذكر، لكن لا يحل لها الاطلاع عليها بتاتا. أما الذكر فإنه لا يحق له معرفة مكان حفظ قطع التشورينغا ولا حتى رؤية قطعة التشورينغا التي تخصه أو لمسها وتناولها إلا بعد وصوله سن الرشد واستكماله لجميع طقوس الترسيم والعبور من سن الطفولة إلى سن الرجولة وبعد أن يثبت لرجال العشيرة أنه رجل مستقيم وعاقل ورزين يُؤتمن على أسرار العشيرة (Spencer & Gillen 1899: 134-5, 139-40).

وفي موطن كل قبيلة تنتشر مراكز طوطمية كل منها يخص عشيرة من عشائرها تحفظ فيه قطع التشورينغا المقدسة التي تحل فيها أرواح أسلافها والتي سنتحدث عنها لاحقا. وهكذا فإن المركز الطوطمي الذي تُحفظ فيه قطع التشورينغا المقدسة يربط العشيرة روحيا بأرضها بحيث لا تتصور أي عشيرة أن تترك موطنها الذي تجوس فيه أرواح أسلافها، كما لا يرد في ذهنها أن تحتل أرض عشيرة أخرى لأن الأرواح التي تجوس فيها لا تخصهم وإنما تخص أهل تلك الأرض. ولذا فإن الحدود الفاصلة بين مواطن العشائر ثابتة لا تتغير منذ القدم. ولكن إذا أقفرت أرض القبيلة بإمكانها أخذ الإذن من أحد جاراتها

للتجول في أرضها للحصول على القوت، وكانوا قادرين على التفاهم فيما بينهم على الرغم من اختلاف لغاتهم (Spencer & Gillen 1904: 13-5).

الشعائر الطوطمية

جميع طقوس الأبورِجِين تدور حول الطوطم وتؤدى دائما في مواقع لها مساس بتاريخ الأسلاف الطوطميين ومحطات توقفهم أو الأماكن التي يفترض أنهم ماتوا عندها ودفنوا فيها والأساطير المتعلقة بالمعجزات والإنجازات المبهرة لهم (Spencer & Gillen 1899: 119). وتتضمن الطقوس الكثير من الأناشيد والرقصات والحركات التمثيلية التي تحاكي في رمزيتها أفعال وحركات أولئك الأسلاف وتستخدم فيها قطع التشورينغا، إضافة إلى تقطيع العروق لإسالة الدماء وطلاء الأجساد بالطلاءات المعهودة وتزيينها بعلائق وأربطة مفتولة من الشعر الآدمي وزينات تتخذ من أوراق الأشجار وأغصانها اللدنة ومن ريش الطيور وذيول الجرابيع والأرانب، وما شابه ذلك (Spencer & Gillen 1904: 315-6). ومن أهم هذه الطقوس طقوس الترسيم والعبور، وطقوس التكاثر *intichiuma*، علاوة على الطقوس المتعلقة بالزواج والولادة والموت. وتتضمن طقوس الترسيم نتف شعر العانة والوجه ومنح الفتى اسما جديدا سريا لا يعرفه أحد غيره ولا يجوز له البوح به إلا للرجال البالغين من أبناء عشيرته والمؤتمنين على أسرار العشيرة وطقوسها، لأن الإسم يعتبر جزءا لا يتجزأ من الشخص، مثله مثل أي عضو من أعضاء جسده، ومن يعرفه يسهل عليه إلحاق الضرر بصاحبه لو أراد. وحتى إذا اضطر الشخص، هو أو غيره، أن يتلفظ باسمه السري فإنه يهمس به همسا لا يكاد يُسمع ولا يتلفظ به إلا بعد التأكد من أنه لا يوجد بالقرب منه شخص من الذين لا يفترض فيهم سماعه أو معرفته. وقد يكون الاسم هو اسم ذلك السلف الأسطوري الذي يعتبر الفتى تجسيدا له (Spencer & Gillen 1904: 273). وطقوس العبور أو الترسيم هذه شديدة التعقيد وتحتوي على الكثير من التفاصيل المسهبة والمملة لغير من لهم اهتمام خاص بهذا الموضوع، لذا فإننا لن نخوض فيها هنا ونكتفي بالقول إنها تتألف من أربع مراحل:

المرحلة الأولى تجري حينما يبلغ الطفل سن الثانية عشرة وتتضمن تجمع النساء للغناء والرقص بينما يمسك عدد من الرجال بالطفل من يديه ورجليه ويقذفونه عاليا في الهواء ثم يتلقفونه لعدة مرات. بعد ذلك يتم طلاء جسده بطلاءاتهم ورسومهم المعتادة. ثم يقومون بثقب أسفل الغشاء الحاجز لأنف الطفل بين المنخرين لإيلاج عظم رقيق يتخذونه من سيقان الطيور أو ما شابه ذلك كنوع من الزينة ولاعتقادهم بأنه سوف يزيد رصيده من الشجاعة والرجولة حينما يكبر. ومن الآن فصاعدا عليه ألا يلعب مع البنات ويجلس مع النساء وإنما يمضي جل وقته مع الرجال ليتعلم منهم مهارات الصيد ومتطلبات الأدوار التي عليه أن يضطلع بها حينما يصل إلى سن الرجولة.

المرحلة الثانية مرحلة التختين تبدأ عند سن البلوغ وهذه تستمر من أسبوع إلى عشرة أيام. وجلدة الذكر التي يقطعها المختّن إما أن تُدهن وتعطى لأخي الفتى ليبتلعها لزعمهم أنها تمنحه الشجاعة والإقدام، أو تجفف ثم تربط بخيط لتعلقها أخته في عنقها. أما دم الختان فيتلقونه في قدح خشبي ويذهبون به إلى النساء ليدهنّ به صدورهن وجباههن ويشربنه. يلي ذلك بعد عدة أسابيع، اعتمادا على المدة التي يستغرقها بُرء جرح الختان، عمل شق طولي slit لجلدة الذكر السفلى التي تغلّف الإحليل من أسفل الحشفة إلى

تزيين الأجساد بالرسومات الطوطمية وأوراق الأشجار وأغصانها اللدنة

صفن الخصيتين، وتسمى هذه العملية subincision. وربما تشمل هذه المرحلة من طقوس الترسيم خلع السنّين الأماميين وتشريط الجلد برسوم ترمز للطوطم مما يؤكد الانتماء له والاتحاد معه. كما يعلمون الفتى كيف يطلق أصواتا تشبه صوت الحيوان الطوطمي وكيف يرقص رقصاتٍ حركاتها تحاكي حركاته. وفي هذه المرحلة يبدأ الكبار بتعليم الفتى أساطير العشيرة والبوح له ببعض الأسرار المقدسة التي تتعلق بتاريخ الأسلاف. وأثناء ذلك يتم عزل الفتى في كوخ منفصل لا يخرج منه إلا لمشاهدة طقوس الترسيم أو بإشراف وتوجيه أحد الرجال المسنين.

المرحلة الثالثة وهي المرحلة الأخيرة والأهم وقد تستغرق طقوسها مدة تتجاوز ثلاثة أشهر وتحضرها حشود من مختلف عشائر القبيلة ويبدأ الإعداد لها مبكرا بجمع أكبر كمية من الطعام لإعاشة الضيوف الذين يُدعون من أماكن بعيدة للمشاركة في حفلات الرقص والغناء. وبعد اجتياز هذه المرحلة يصبح الشخص رجلا مكتمل الرجولة ويتم إطلاعه على كل أسرار العشيرة وطقوسها وعلى مخبأ قطع التشورينغا المقدسة. وأثناء طقوس الترسيم يتعرض الشبان المرسّمون لشتّى وأقسى أصناف التعذيب من قبل الكبار وشتّى أنواع الأوامر والنواهي العشوائية وذلك لتعويدهم على الصبر والجلد والاحتمال وعلى طاعة الكبار واحترامهم.

وعلاوة على طقوس الترسيم فإن من أهم الطقوس الطوطمية طقوس التكاثر *intichiuma* التي يسهب سْبِنْسَر وغِيلِن في وصفها (Spencer & Gillen 1899: 11, 167-211, 423-49)، ويشخصانها على أنها طقوس يُقصد منها مساعدة الطوطم على التوالد والتكاثر، سواء كان الطوطم حيوانا أو نباتا، ولذلك سموها طقوس التكاثر. ويمكن توضيح طقوس التكاثر بتقديم وصف للبعض منها كما وردت في كتابي سْبِنْسَر وغِيلِن السالف الذكر عن الشعوب الأصلية لوسط أستراليا (1899, Ch.VI; 1904, Ch IX). وسوف نكتفي فقط بإيراد ثلاثة أمثلة لهذه الطقوس، علما بأنهما يوردان أمثلة أخرى لطقوس تكاثر العديد من الحيوانات والنباتات والطيور قبل أن يشرعا في تحليل العلاقة التي تربط الطوطم بمن ينتمون إليه ويتسمون باسمه على المستويين الفردي والعشائري. ونبدأ بوصف الطقس المخصص لتكاثر دودة الويتشيتي، التي يتغذون عليها وتعد من الأطعمة المفضلة عندهم، وتظهر لفترة قصيرة بعد نزول المطر.

حين يحدد رئيس عشيرة دودة الويتشيتي –ويسمون رئيس العشيرة *alatunja*– موعد إقامة طقوس تكاثر دودة الويتشيتي ينطلق بصحبة الرجال البالغين من أبناء تلك العشيرة بعد الظهر إلى أحد المغارات في أحد الشعاب التي تبعد عن القطين مسافة ميل أو أكثر قليلا حيث يوجد المركز الطوطمي المقدس ومستودع قطع التشورينغا. وقبل الذهاب إلى هناك عليهم أن ينزعوا زينتهم، حتى أحزمتهم والخيوط التي يربطون بها شعر رؤوسهم، وأن لا يحملوا معهم شيئا من أسلحتهم إلى ذلك المكان المقدس. ويسيرون صامتين وفي صف مستقيم واحدا وراء الآخر ويتبعون خط السير الذي يفترض أن أسلافهم الطوطميين في العصر الأسطوري سلكوه في رحلاتهم وتنقلاتهم. وحينما يقتربون من هدفهم بعد حلول الظلام يبيتون قريبا منه إلى حين طلوع الفجر. وحينما يستيقظون يستأنفون السير على نفس الطريق متجهين نحو صخرة ضخمة ملساء ومستديرة من المرو الصلب اللامع quartz يحيط بها عدد من الصخور المماثلة أصغر منها. الصخرة الكبيرة تمثل الدودة الناضجة والصخور الصغيرة تمثل بيضها. يحمل رئيس العشيرة قدحا ضحلا بيضاوي الشكل منحوتا من الخشب يسمونه بِيتْشي *pitchi* يقرع به على الصخرة الكبيرة بينما

رسومات تبين تشريط الجلدوإيلاج عظم
رقيق أسفل الغشاء الحاجز للأنف

بعض من مظاهر طقوس الترسيم والعبور

يحمل الرجال أغصانا اقتلعوها من شجر الصمغ، التي تتسمى الدودة باسمها وتتغذى عليها وتضع عليها بيضها، يقرعون بها على نفس الصخرة ويرفع الجميع عقيرتهم بالغناء وترديد كلمات تتعلق بالدودة ودورة حياتها وتحثها على البيض والتكاثر. بعد ذلك يفعلون الشيء نفسه مع الكتل الصخرية الصغيرة التي تمثل البيض. ثم يلتقط رئيسهم أحد هذه الكتل الصغيرة التي تمثل البيض ويربت بها على بطن كل واحد من رجاله ويردد "لقد أكثرت من الأكل" ثم ينطح بطنه بمقدم رأسه. ويفترضون أن المسح بقطع التشورينغا على البطن يرخي عضلات البطن والأمعاء التي تتقلص لشدة وعنف المشاعر التي تجتاح الفرد وهو يؤدي هذه الطقوس (Spencer & Gillen 1904: 177-82, 267, 289-91). بعد ذلك يستخرجون قطع التشورينغا من مستودعها القريب ويحملونها معهم وينزلوا من عند المغارة إلى بطن الشِّعْب ليتجمعوا عند صخرة يقولون إن أحد رؤساء طوطمهم الأسطوريين توقف عندها ليطبخ محصوله من دودة الويتشيتي قبل أن يسحنها ثم يأكلها. ويقوم الرئيس بالقاء قطع التشورينغا من قمة هذه الصخرة لتنزلق إلى الأسفل في بطن الوادي بينما يقوم رجاله بالصعود على الصخرة والنزول منها مهرولين وهم ينشدون أناشيد تتعلق بالطوطم. بعد ذلك يكرر رئيس المجموعة قرع هذه الصخرة بالقدح الذي يحمله معه بينما يقرعه رجاله بالأغصان التي يحملونها مع ترداد نفس الأغاني والكلمات السابقة. وبعد الانتهاء من هذه الجزئية يجمعون قطع التشورينغا ويعيدونها إلى مخبئها. عندها ينطلقون إلى حفرة تبعد عنهم أكثر من ميل مدفون في قاعها كتلتين صخريتين الأكبر منهما تمثل الدودة في مرحلتها اليرقية والأصغر بيضتها. ينزل رئيسهم إلى قاع الحفرة التي لا يتعدى عمقها ثلاثة إلى خمسة أقدام وينزل الرجال معه واحدا بعد الآخر ليعيد مع كل منهم نفس الطقوس السابقة بنفس الطريقة وبنفس الحركات والكلمات. وهكذا في عشرة أماكن مختلفة ومتناثرة على بقعة لا يتعدى طول قطرها ميلين تقريبا. بعد ذلك يعودون قافلين باتجاه قطينهم. ويتوقفون في منتصف الطريق ليتزينوا وذلك بأن يولج كل منهم العظم المعتاد على إيلاجه في أسفل الغشاء الحاجز بين المنخرين، كما يزينون رؤوسهم بذيول الجرابيع وريش ببغاوات الكوكاتو cockatoo، ويربط كل منهم عصابة رأسه على حزمة من أغصان شجرة الصمغ تتدلى من العصابة إلى الكتفين وتتحرك حركات وتصدر خشخشة تتناغم مع وقع خطواته. وفي طريق عودتهم إلى القطين ولكن بعيدا عنه بعض الشيء وبمنأى عن مرأى النساء والأطفال كان أحد الرجال من كبار السن الذين تخلفوا عن مصاحبة الجماعة قد قام بتشييد هيكل من غصون الشجر على شكل سرداب طويل وضيق يمثل الشرنقة التي تخرج منها الدودة بعد أن يكتمل نموها وتستكمل مرحلتها اليرقية. وحينما يصل الرجال إلى ذلك السرداب آخر النهار يرسمون على أجسادهم العارية ووجوههم خطوطا ترمز للطوطم بدهان من الغرين الأصفر والمغر الأحمر المخلوط بالدهون والشحم المذاب. ثم يعبرون واحدا بعد الآخر من خلال ذلك السرداب وهم يغنون أغاني تتعلق بدورة حياة دودة الويتشيتي ويتحركون داخل السرداب حركات انزلاقية تشبه حركات الدودة وهي تحاول الخروج من الشرنقة.

وقبيلة الأَرُنْتا، مثلها مثل بقية القبائل الأسترالية، تنقسم إلى شقين متعادلين تقريبا؛ الشق الأول رجاله ونساؤه أدنى قرابة من رجال ونساء الشق الثاني إلى الرجال الذين ينتمون لطوطم دودة الويتشيتي ويقومون بأداء هذه الطقوس التكاثرية. وبناء على درجة القربى هذه يتحلق عند مخرج السرداب رجال الشق الأول الذين لم يغادروا القطين ولم يشاركوا في تلك الطقوس يراقبون حركات المؤدين ويسمعون غناءهم. وعلى

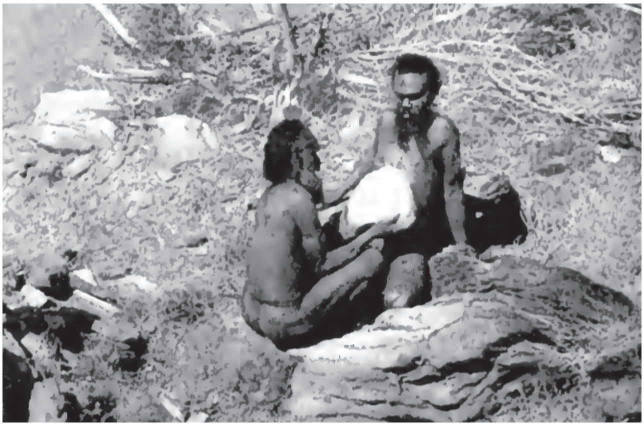

بعد بضعة أمتار يصطف رجال الشق الثاني منبطحين على بطونهم ومنكبين على وجوههم بدون حراك ويبقون صامتين تماما. وعلى بعد بضعة أمتار أخرى يتجمع نساء الشقين معا وقد صبغن أجسادهن بخطوط بيضاء وحمراء لكن نساء الشق الثاني يبقين منبطحات على بطونهن ومنكبات على وجوههن بينما تقف نساء الشق الأول يراقبنهن للتأكد من أنهن لا ينهضن ولا تبدر منهن أي حركة حتى يؤذن لهن. وبين الفينة والأخرى يلتفتن ليلقين نظرات من على بعد على رجالهن الذين يؤدون الطقوس في مشهد يفترض أنه تكرار لمشاهد وأدوار كانت النساء يقمن بها في عصور الأسلاف الأسطوريين. ويتكرر دخول الرجال إلى السرداب وخروجهم منه والغناء داخله. ومنذ انطلاقهم من القطين ليلة البارحة لتأدية هذه الطقوس وحتى عودتهم إليه مساء اليوم يصوم الرجال ولا يتناولون أي طعام أو شراب إلا بعد استكمال تأدية الطقوس وخروجهم من السرداب قبيل الغروب. بعد ذلك يتنحّون جانبا ويوقدون نارا عظيمة يجلسون عندها يغنون طوال الليل بينما رجال ونساء الشق الثاني باقون على وضعهم السالف. وقبل بزوغ الفجر يتوقف الغناء فجأة وتطفأ النار بسرعة وهذه إشارة لرجال ونساء الشق الثاني الذين ينهضون مسرعين وينفرون عائدين إلى القطين. ومع طلوع الشمس يعود الرجال الذين شاركوا في تأدية الطقوس إلى السرداب ليوقدوا نارا أخرى ويقوموا بمسح الطلاء وإزالة الريش من على أجسادهم ونزع جميع أدوات الزينة التي تزينوا بها ويعطونها لرجال الشق الثاني من القبيلة ليتبركوا بها. ثم يحضرون كميات كبيرة من الطعام يطبخونها على نارهم ويأكلونها ويعلن رئيس المجموعة نهاية الطقوس (Spencer & Gillen 1899: 170-9).

أما طقوس التكاثر المتعلقة بطوطم طائر الإيمو فتتم على النحو التالي. يقوم رجال العشيرة بكنس وتنظيف قطعة صغيرة ومنبسطة من الأرض وتسويتها بعد إزالة كل ما فيها من الأشواك والقش والحجارة والتراب. ثم يقوم رئيس المجموعة الطوطمية وعدد من رجاله بتقطيع عروق معاصمهم وأذرعهم لتسيل منها الدماء بغزارة على تلك البقعة لتغطيها بالكامل. وبعد أن تتجمد هذا الدماء تشكل سطحا صلبا وأملسا لا تنفذ منه السوائل تبلغ مساحته حوالي ثلاث ياردات مربعة. بعد ما يتجمد الدم ويتصلب سطحه يأتون بطلاءاتهم المعهودة ليرسموا على ذلك السطح نقوشا بأشكال هندسية مختلفة ترمز لمختلف أجزاء طائر الإيمو وبيضه (Spencer & Gillen 1899: 179). فهاتان بقعتان باللون الأصفر ترمز لقطع من شحمه التي يعتبرونها ألذ ما فيه، وهذه دوائر بأشكال مختلفة يرمز كل منها إما للبيض الذي باضه الطائر حديثا أو الذي لا يزال داخل المبيض، وتلك دوائر ترمز لقشر البيض بداخلها نقط صفراء ترمز للفرخ الذي شارف

رسومات طوطمية على بقع الدم المتجمدة

على التفقيس ويحاول الخروج من البيضة. وهذه خطوط متعرجة بمختلف الألوان ترمز لأحشاء الطائر داخلها نقط سوداء ترمز لذرقه. والنقط البيضاء تتناثر هنا وهناك رمزا لريشه. ويشرف رئيس العشيرة على كل صغيرة وكبيرة في هذه الطقوس ويتعامل معه الجميع باحترام شديد ولا يكلمونه إلا همسا. وبعد استكمال الرسومات يغطونها بأوراق الشجر ثم ينهضون متجهين إلى منصة من أغصان الشجر أعدت خصيصا لتوضع عليها قطع التشورينغا المقدسة التي كانوا قد استخرجوها من مخبئها وزينوها ببعض الطلاءات وألصقوا عليها من ريش الطوطم ومن ريش الببغاء الأسود. ويتحلق الرجال حول المنصة ويمضون الليل كله ينشدون أناشيد تتعلق بطوطمهم وقطع التشورينغا. وبين فترة وأخرى يتوقف الإنشاد ليبدأ الرئيس بشرح معاني النقوش التي على قطع التشورينغا والرسوم التي رسموها على بقعة الدم المتجمدة. ثم يختار الرئيس ثلاثة من الرجال المسنين ليقوموا بدور الأسلاف الأسطوريين الذين انحدروا من الطوطم بينما يختار أيضا ثلاثة من الفتية ليمثلوا نسل أولئك الأسلاف بعد أن يطلوا صدورهم ويلصقوا عليها ريش الببغاء الأبيض. ومع بزوغ الفجر يحمل الرجال الثلاثة الذين يمثلون دور الأسلاف قطع التشورينغا المقدسة منصوبة طوليا على رؤوسهم بينما يذهب ثلاثة الفتية الذين يمثلون نسلهم إلى القطين. ويتحلق بقية الرجال حول الرسومات وهم ينشدون الأناشيد عن الطوطم. ومع شروق الشمس يذهب الرجال إلى ساحة مفتوحة سبق اختيارها وتجهيزها على الجهة الأخرى المقابلة لتل قريب من القطين تغطيه الحشائش. وفي ذات الوقت كان الفتية الثلاثة الذين سبق ذكرهم قد أجلوا النساء والأطفال إلى خارج القطين وعادوا مسرعين إلى ساحة الاحتفال واتخذوا أماكنهم في ناحية جانبية غير بعيد من بقية الرجال، بينما اتخذ الرجال الثلاثة الذين يمثلون دور الأسلاف موقعا متوسطا بين ساحة الاحتفالات وبين القطين وعلى مسافة تمكن النساء والأطفال من رؤيتهم عن بعد وشرعوا بتحريك رؤوسهم دون تحريك أقدامهم والتلفت يمنة ويسرة وإلقاء نظرات زائغة هنا وهناك تشبه نظرات وحركات طائر الإيمو والكل منهم يقبض على رزمة من الأغصان المورقة وعلى رؤوسهم تنتصب قطع التشورينغا المثبتة عليها طوليا وقد زينت حوافها بريش طائر الإيمو وريش الببغاء الأسود وذلك رمزا لرقبة الإيمو الطويلة ورأسه الصغير. وتقف النساء مع أطفالهن يراقبن عن بعد هذه الطقوس والدهشة تعلو وجوههن لأن هذه من المناسبات النادرة التي يسمح فيها لهن بمشاهدة مثل هذه الطقوس ولو عن بعد. وفجأة ينحرف الرجال الثلاثة في حركة نصف دائرية وسريعة نحو النساء اللاتي تتعالى أصواتهن خائفات. ثم يتوقف الرجال الثلاثة ويتلفتون يمنة ويسرة مثلما سبق وصفه قبل أن ينطلقوا مسرعين مرة أخرى نحو النساء اللاتي تفر مهرولة إلى القطين. هنا يبدأ الرجال وبحركة واحدة يلوحون بيد باتجاه النساء والأطفال وكأنهم يحثونهم على الهرب ويلوحون باليد الأخرى للرجال الثلاثة يشجعونهم على الرجوع إلى مواقعهم السابقة في مركز الساحة. وبعد اختفاء النساء والأطفال عن الأنظار يصعد الرجال على التل المقابل ويهرولون نحو القطين وينزلون قطع التشورينغا المثبتة على رؤوس الرجال الثلاثة ويغرسونها في الأرض في وضع منتصب. وفي منتصف النهار يأخذون قطع التشورينغا الموضوعة على المنصة ويحضرونها إلى وسط ساحة الاحتفالات ويطفقون يمسحونها بأكفهم ويدهنونها بالمغر الأحمر وهم ينشدون الأناشيد. وبعد الانتهاء من هذه العملية يعودون للتحلق حول بقعة الدم والرسومات المرسومة عليها ويعود الرئيس مرة أخرى ليشرح معانيها لرجاله الذين يرفعون عقيرتهم بالغناء بين الفينة والفينة. وقبل غروب الشمس عند الغسق يندب الرئيس مرة أخرى ثلاثة رجال آخرين

ليقوموا بتمثيل دور الأسلاف الأسطوريين الذين يقومون بدورهم بإجلاء النساء والأطفال من القطين باتجاه ساحة الاحتفالات ويعيدون أداء نفس الطقوس الأولى. ويعيدون الكرة مرة أخرى في اليوم التالي. ويختتمون الطقوس بإزالة الرسومات من على بقعة الدم وإعادة قطع التشورينغا إلى مخبئها (Spencer & Gillen 1899: 179-85).

وهذه طقوس تكاثر حيوان الكنغر. أسفل سفح سلسلة جبال صخرية مرتفعة وشديدة الانحدار تمتد من الشرق إلى الغرب وفي ظلال شجرة عتيقة من أشجار الصمغ يقع غدير صغير يمتلئ بالماء في موسم المطر ويجف في فصل الصيف. وهناك إلى جانب الغدير تشمخ صخور عمودية ترتفع لمسافة خمسين قدما. وفي موسم الأمطار تتساقط المياه على قمم هذه الصخور من قلتة تقع على حافة صخرة ناتئة تبرز من خلفها القمم الجرداء للسلسلة الجبلية. ويتسرب من قمم سلسلة الجبال هذه تلاع تتجمع في شعيب تجري مياهه باتجاه الجنوب حتى تضمحل وتتلاشى في الكثبان الرملية. ترتبط حكاية الغدير وتكونه مع أسطورة السلف الطوطمي لعشيرة الكنغر حيث يخلّد تكوّنه البقعة التي يقولون إن الأسلاف الأسطوريين لعشيرة الكنغر أشعلوا نارهم عندها، ويطلق السكان المحليون على الصخرة المجاورة للغدير مسمى "قطين الأسلاف". ويوجد بالقرب من الغدير مدفونا تحت الأرض صخرة مستطيلة تمثل ذيل كنغر كانت كلاب الدنغو اصطادته في العصر الأسطوري ودفنت ذيله هناك بعد ما أكلت بقية جسده. وإلى الجانب الشرقي من الغدير يوجد في عرض سفح السلسلة الجبلية مغارة سقفها قليل الارتفاع ويتخذ شكل صخرة تبرز حافتها إلى الخارج على شكل نتوء ملحوظ. ويمكن الصعود إلى المغارة من درجات تبدأ من عند الغدير. وتقول الأسطورة إن الأسلاف توقفوا عند الحافة الناتئة من المغارة لطبخ وأكل لحم الكنغر الذي صادوه. هذه الحافة الناتئة هي النَّنْجا الذي تسكن فيه روح ذلك الكنغر وأرواح الكثير من حيوانات الكنغر الأخرى التي جاءت بعد ذلك واختفت تحت الأرض في ذلك المكان بعدما بقيت أرواحها هائمة على السطح بالقرب من الغدير. أما الغدير فهو النَّنْجا الذي تسكنه أرواح الأسلاف لعشيرة الكنغر من الآدميين.

وإذا قررت عشيرة الكنغر الطوطمية بتوجيه من رئيسها أن تقيم طقوس تكاثر الكنغر يعدون قطينا مؤقتا خاصا بالرجال لهذا الغرض يكون بعيدا عن قطين العشيرة وبمنأى عن مرأى ومسمع النساء والأطفال الذين لا يسمح لهم بدخوله ولا حتى الاقتراب منه. ويختارون موقع هذا القطين المؤقت إلى الغرب من المغارة التي عند الغدير ولكن بمنأى عنها ويبعد عنها بحوالي مائة ياردة. وفي الصباح الباكر يبعثون فتى يقفر الأرض للتأكد من عدم وجود أي غرباء أو نساء أو أطفال هناك بالقرب من ذلك المكان. ويتقدم الرجال بمحاذاة سفح السلسلة الجبلية حتى يصلوا إلى المكان الذي سبقهم إليه الفتى وجلس ينتظرهم فيه. هنا يوجد مُخَبّأ تحت الأرض صخرة رمادية ملساء من الحجر الرملي غير الصلب يبلغ طولها ثلاثة أقدام ومحيطها قدم واحد وتأخذ في جانبها المستعرض شكل مثلث ويغطي رأسها التراب بعمق قدم واحد من تحت السطح. وحين يجتمع الرجال يحفر رئيسهم الصخرة ويزيح الرمل عنها لتبدو ظاهرة للعيان. ويغطي جانباها اللذان تآكلا من كثرة الحك صخور أخرى صغيرة واحدة منها مسطحة هي التي تستعمل في الحك. يأخذ الرئيس هذه القطعة الصغيرة ليحك بها، كما جرت العادة، السطح المكشوف لتلك الصخرة الأكبر بينما يتحلق الرجال حوله صامتين. بعد ذلك تُرفع الصخرة إلى أعلى ليراها الجميع بوضوح. هذه الصخرة هي في نظرهم ذيل الكنغر الأسطوري المدفون الذي سبقت الإشارة إليه. أما

الأحجار المتناثرة حولها والتي تصغرها حجما فهي عظام كلاب الدنغو التي أكلت الكنغر ودفنت ذيله. بعد حك جوانب الصخرة ومشاهدتها من الجميع يهيل الرجال عليها التراب ويدفنونها مرة أخرى قبل أن يواصلوا سيرهم بمحاذاة سفح السلسلة الجبلية ليتوقفوا عند الجانب الآخر من الغدير والبعيد من المغارة ليشربوا ويعودوا أدراجهم ويجلسوا عند الصخرة المقدسة وينقسمون إلي فرقتين أحدهما تجلس إلى الجانب الأيمن من الصخرة والأخرى إلى اليسار منها. بعد ذلك يتقدم الرئيس مع أحد رجاله ويصعد التل المقابل إلى الشرق من الصخرة. وعلى ارتفاع حوالي عشرين قدما يوجد صخرتان بارزتان أحدهما لرجل من الأسلاف والأخرى لامرأة. ويقوم أحد الرجال بحك أحد الصخرتين والآخر بحك الأخرى. بعد ذلك ينزل الرجلان ويلتحقان برفاقهم. وهنا يشرع الرجال برسم خطوط متوازية باللونين الأبيض والأحمر على صفحة الجبل، الأحمر يرمز لفرو الكنغر والأبيض لعظامه. بعد ذلك يصعد عدد من الفتية إلى أعلى ويقطعون عروق معاصمهم لتسيل منها الدماء على الصخرة البارزة التي تسكنها أرواح الكنغر والرجال أسفل منهم ينظرون إليهم وينشدون الأناشيد عن الكنغر ويحثونه على التوالد والتكاثر. الهدف من سفك دماء أبناء عشيرة الكنغر على الصخرة التي تسكن فيها أرواح الكنغر هو استنهاض هذه الأرواح لتخرج من مخابئها وتجري في كل الاتجاهات لتُلقح إناث الكنغر حتى يتكاثر توالدها وتزداد أعدادها. فالحيوانات، في نظرهم، تتكاثر كما يتكاثر البشر، بمعنى أن أنثى الحيوان لا تحبل من تلقيح الذكر لها وإنما من ولوج روح سلف من أسلاف الحيوان الأسطوريين إلى رحمها، كما سنرى أدناه (Spencer & Gillen 1904: 315-6). بعد ذلك يقوم الرجال بطلاء أجسادهم بالألوان المعتادة ويعود الشيوخ إلى القطين بينما يتفرق الشبان في المنطقة المحيطة لاصطياد حيوانات الكنغر التي لا يأكلونها هم وإنما يحضرونها إلى القطين ليأكلها كبار السن وأبناء العشائر الأخرى من غير عشيرة الكنغر وذلك بعدما يأكل رئيس عشيرة الكنغر قليلا من لحمها وبعدما يدهنون بشحمها المذاب أجساد الفتية الصيادين وغيرهم من الذين شاركوا في الطقوس. وفي الليل يدهن رجال العشيرة أجسادهم بالطلاءات المعتادة ويرسمون عليها نفس الخطوط التي سبق لهم رسمها على صفحة الجبل ثم يمضون الليل كله يغنون أغاني تتحدث عن الأسلاف الأسطوريين للعشيرة ويرقصون رقصات تحاكي حركاتها حركات الكنغر الطوطمي. وفي الصباح يعود الفتيان مرة أخرى إلى الصيد وفي الليل يغنون ويرقصون. ويستمرون على ذلك لبضعة أيام (Frazer 1910/I:: 110; Spencer & Gillen 1899: 193-201; 1904: 315-6).

وقد توصل سْبِنْسَر وغِيلِن من خلال أبحاثهما الميدانية إلى أن تعامل الأبورِجِين مع طوطمه وعدم إقباله على قتله أو إيذائه ليس نابعا بالضرورة من اعتقاده بأنه نسخة منه ولا الاعتقاد بأن موت الطوطم يعني موت صاحبه من البشر، كما كان يقول السير جورج غْرَي George Grey. فطقوس التكاثر تدل على أن من ينتمون للطوطم يجب عليهم أكله، وإن بكميات قليلة، لتفعيل هذه الطقوس وعلى أنهم يقومون بطقوسهم من أجل توفير المحصول الكافي ليصطاده الآخرون أو يجنونه ويقتاتون عليه، وعلى أنهم يعينون الآخرين على صيده أو جنيه. وأكثر العشائر الطوطمية التي تقطن صحراء وسط أستراليا لا تمانع في أكل طوطمها ولكن الشخص لا يأكل طوطمه إلا ضمن أدنى الحدود وتحت ظروف خاصة جدا ووفق شروط محددة، كأن يمسه الجوع ولا يجد شيئا آخر يقتات به. وفي حالة اضطراره لأكل طوطمه فإنه لا يأكل منه إلا أقل القليل ويقتصر على أكل بعض الأجزاء دون الأخرى، فلا يأكل الأجزاء اللذيذة والمفضلة، كما مر بنا، مثل

ذيل الكنغر أو مثل الشحم أو مثل البيض إذا كان الطوطم من فصيلة الطيور، مثل طائر الإيمو، علما بأنه كلما تقدم السن بالرجل كلما خفت التابوهات المتعلقة بأكل الطوطم حتى تتلاشى تماما بالنسبة للعجائز. كما أن هناك مناسبات يتحتم فيها على الشخص أن يأكل قليلا من طوطمه، ومن هذه المناسبات مناسبة إقامة طقوس التكاثر لأن فاعلية هذه الطقوس ونجاعتها تتوقف على تناول كميات قليلة من الطوطم، لكن دون الإكثار من ذلك لأن الإكثار من الأكل مثله مثل الامتناع تماما عن الأكل، كلاهما نتيجته عدم فاعلية الطقوس. ومن يكثر من أكل طوطمه سوف تعاقبه العشائر الأخرى لأن فعلته سينتج عنها عدم تكاثر الطوطم وتوفره لهم (Spencer & Gillen 1904: 322-5).

ويدعي أبناء العشيرة أن هناك علاقة خاصة تربطهم بطوطمهم وأن لهم فيه حق خاص يتقدم على غيرهم، وهم الذين يرتبط بهم مصير الطوطم من حيث التكاثر أو الانقراض ويتحكمون بذلك من خلال ما يؤدونه من طقوس التكاثر. وأبناء العشائر الأخرى الذين ينتمون لنفس القبيلة التي تنتمي لها العشيرة الطوطمية لا يحق لهم أكل الطوطم بالطريقة المبتذلة التي تؤكل بها أصناف الطعام الأخرى. فلا يحق لهم مثلا تناوله خارج القطين. وإذا صادوه، إن كان حيوانا أو طيرا، أو جمعوه، إن كان نباتا، فعليهم إحضاره إلى القطين قبل أن يتناولوا منه شيئا ثم تقديم قطعة منه إلى رئيس العشيرة الطوطمية ليتناولها، وذلك لإثبات أولوية عشيرته وأحقيتها في أكل الطوطم قبل غيرها ثم بعد ذلك يأذن لهم بأكله وكأنه بذلك يتنازل باسم العشيرة ويحرم نفسه هو وعشيرته من هذا الحق الذي يمنحونه تكرما منهم للآخرين. ولو لم يقم أبناء العشائر الأخرى بعمل هذه الشعائر والخطوات الرمزية وأكلوا الطوطم بدون إذنٍ من رئيس العشيرة الطوطمية صاحبة الشأن لاستحقوا غضب أبناء تلك العشيرة ولربما تسبب تجاوزهم لهذا الحق في عدم تكاثر الطوطم وانقراضه. يضرب سْبِنْسَر وغِيلِن مثلا لذلك أنه بعد أداء طقوس التكاثر لدودة الويتشيتي وحلول موسم الأمطار تظهر الدودة وتبدأ في النمو والبيض والتكاثر بسرعة. لكن فترة تكاثرها ونموها لا تطول لأنها تتزامن مع حلول موسم الأمطار القصير. في هذه الفترة القصيرة يهب الجميع، صغارا وكبارا، نساء ورجالا، من ينتمون لطوطم الدودة وغيرهم من أبناء العشائر الأخرى، إلى جمع أكبر كمية ممكنة من الدود المكتمل النمو ويعودوا به إلى القطين لطبخه ثم تجفيفه وسحنه وحفظه في الأقداح الخشبية الصغيرة التي تسمى بِيتْشي *pitchi* وفي أوعية يخصفونها من لحاء الأشجار ليتغذوا على ما جمعوه بعدما ينتهي موسم الأمطار وتنقطع الدودة. لكن أبناء العشيرة الطوطمية لا يأكلون ما جمعوه من الدودة وإنما يمنحونه لأبناء العشائر الأخرى. كذلك أبناء العشائر الأخرى بعدما يجمعون حصيلتهم لا يتناولون منها شيئا قبل أن يحضروها إلى رئيس عشيرة الدودة الذي يساعدهم هو وأبناء عشيرته في تجفيفها وسحنها ثم يقدمون له كل ما جمعوه فيتناول بين أصبعيه شيئا قليلا منه وبعد ذلك يرده إليهم ويسمح لهم بأكله. بعد ذلك يحاول سْبِنْسَر وغِيلِن أن يفسرا طقوس التكاثر ويقدما نظرية ترمي إلى فك رموزها ومغازيها الحقيقية. يقولان إن هذه طقوس سحرية الهدف الأساسي منها التأثير على مختلف أصناف الحيوانات والنباتات وغيرها من المظاهر الطبيعة الأخرى التي يعتمد عليها الأبورِجِين في حياتهم وفي غذائهم من أجل حثها على التوالد والتكاثر إن كانت من الحيوان أو النبات أو على أن تأتي في وقتها المحدد وبالكمية اللازمة إن كانت أمطارا أو رياحا، وهكذا. (Spencer & Gillen 1904: 159-60, 286, 296-9, 308-9, 316, 323-4; 327).

وإذا كنا نتحدث عن الطقوس المتعلقة بالمقدس والمعتقدات الدينية فلا بد من الإشارة ولو بشكل عابر

إيداع الجثث في فروع الأشجار بدلا من دفنها

إلى طقوس الدفن ومراسم دفن الميت أو التخلص من جثته والنواح عليه والحداد، والتي تختلف من قبيلة لأخرى (Spencer & Gillen 1899: 497-511). فمنهم من يحرق الجثة ومنهم من يدفنها ومنهم من يأكلها ومنهم من يلف الجثة بكفن يعملونه من لحاء الشجر، أو يلف العظام فقط بعد أكل اللحم، ويودعها في فرع أحد الأشجار العالية أو يترك الجثة لمدة حتى يهترئ اللحم ثم يفصل عظام الهيكل ويجمعها في كيس ويودعها في فجوة عميقة من الفجوات التي توجد عادة في أعالي جذوع الأشجار الضخمة (Spencer 1914: 228-56). إذا مات الميت لا يجوز عندهم ذكر اسمه أو التلفظ به لاعتقادهم بأن الجسد يفنى لكن الروح لا تموت بل تبقى تجوس بالقرب من القطين وقد تأتي حالما تسمع أحدا يتلفظ باسم صاحبها (Howitt 1904: 440, 449; Spencer 1914: 22, 245). وإذا مات الميت أحرقوا القطين الذي مات فيه وهجروه ولا يعودون له إلا بعد انقضاء سنتين أو أكثر. وبعض قريبات الميت، خصوصا زوجته، يجب عليهن الصيام عن الكلام ولا يعدن للكلام إلا بعد مدة قد تمتد لأشهر وبعد تأدية طقوس معينة، وخلال هذه المدة يتفاهمن مع الآخرين بلغة الإشارة وذلك بتحريك الأصابع واليدين والأكتاف والمرافق بطريقة سريعة وبرشاقة مذهلة، كما يقول سْبِنْسَر وغِيلِن، لكنها حركات يصعب، أو بالأحرى يستحيل، تأديتها على غيرهم من الذين لم يمارسونها ويتمرنون عليها منذ الصغر (Spencer & Gillen 1899: 500-1). ومعظمهم لا يؤمنون بالموت الطبيعي بل يعتقدون أنه لا يموت أحد إلا بفعل السحر وعلى أقرباء الميت أن يجدّوا في البحث عن الساحر للاقتصاص منه والأخذ بثأر ميتهم. فلو أن أحدا مثلا مات بالسلاح أو سقط من شاهق قالوا إن عمل الساحر هو الذي تسبب في سقوطه وموته أو وجه الرمية إلى جسده لتصيبه في مقتل. وهؤلاء إذا مات الميت ودفنوه مسحوا المنطقة المحيطة بالقبر كل صباح لمدة شهر كامل وأتوا ليروا أقدام الروح التي تأتي إلى القبر لتتأكد من موت صاحبه وهذه يقولون إنها روح الساحر الذي كان السبب في موته، فإذا وجدوا مثلا آثار كلب جزموا أن الساحر من بني كلب وإن كانت آثار يربوع جزموا أنه من بني يربوع وإن كانت آثار حية قالوا إنه من الأراقم، وهكذا. هذا بينما هناك من يمسح المنطقة المحيطة

بالقبر ليروا إذا ما وجدوا آثار أقدام الميت على الأرض فإن ذلك يعني أنه غير مرتاح في قبره فنبشوا الجثة ودفنوها في مكان آخر. وإذا كان الميت شخصا مقدما في عشيرته وضعوا الطعام عند قبره لتتغذى عليه روحه وأوقدوا كذلك نارا تتدفأ عليها في الليل (Howitt 1904: 448, 452, 455, 470). وبعضهم إذا مات الميت لفوه بكفن من لحاء الشجر وعلقوا جثته في فرع شجرة تطل على بركة ماء من تلك التي تكثر فيها أزهار السوسن والزنبق. وبعد أن يهترئ اللحم ولا يبقى إلا العظام ينزلون العظام من على الشجرة لينوحوا عليها ثم يعيدونها إلى مكانها فوق الشجرة حتى يأتي موسم الأمطار فتسقط في البركة ويجرفها تيار السيول (Spencer & Gillen 1904: 552-4). ومنهم من يبني كوخا يمددون فيه الميت ثم يتجمع الأقرباء داخل الكوخ ويستلقون واضعين رؤوسهم على جثته وينوحون عليه والبعض منهم يتمدد بكامل جسده على جسد الجثة (Howitt 1904: 451). وبعضهم يعتقد باحتمالية عودة الأموات أحيانا للاختلاط بالأحياء لذلك ينزعون أظافرهم للتعرف عليهم لو عادوا فعلا. ومنهم من يأخذ الاحتياطات اللازمة لعدم تمكين الجثة من العودة إلى عالم الأحياء فيقومون قبل الدفن بربط إبهامي القدمين أحدهما بالآخر وربط إبهامي اليدين بعد إدارتهما خلف ظهر الجثة. ومنهم من يكسر رجل الجثة أو يستخرج أحشاءه ويملأ بطنه بالحصا حتى لا يتمكن من النهوض والخروج من القبر، فهم يعتقدون أن روح الميت تخرج من قبره وتتسلل إلى القطين للتأكد من أن العشيرة تؤدي مراسيم المأتم بالشكل اللائق (Howitt 1904: 448-9, 474). هذا على حين أن البعض الآخر منهم يحفر حفرة صغيرة بجوار القبر ويحدث كُوّة بينها وبين القبر وذلك للسماح لروح الميت لتخرج من القبر وتتمشى في المنطقة المحيطة متى ما سئمت من وحشة القبر. والبعض يدفنون موتاهم في وضع الجلوس والبعض في وضع الوقوف والبعض يكورون الجثة بحيث يصالبون اليدين على الصدر ثم يثنون الرجلين حتى تلامس الركبتين الذقنين ويحزمونها ويلفونها بلحاء الخشب ويدفنونها. إذا وصل العجز بكبير السن إلى درجة لا يستطيع معها الرحيل مع العشيرة أوقدوا عنده نارا ورحلوا عن القطين وتركوه وحيدا لقدره، ومنهم من يخنق أولئك العجزة ويحرقون جثثهم (Howitt 1904: 444). البعض منهم يدفن مع الميت كل أشيائه بما في ذلك طاسة للشرب ورمحه وهراوته إن كان رجلا ليصطاد ما يقيته أو إن كانت امرأة تركوا عندها عصا الحفر لتقتلع لنفسها ما يقيتها من بقول الأرض. وإذا ماتت الأم المرضع دفنوها ودفنوا رضيعها معها. والعادة عندهم أنهم يأكلون لحم الطفل الميت. وإذا كان الطفل الأكبر هزيلا والأصغر سمينا قتلوا السمين وأطعموه للهزيل لتتحسن صحته وينمو بسرعة، وإذا مسهم الجوع أكلوا أطفالهم وربما دعوا جيرانهم لمشاركتهم في الوليمة. ويقول هَاوِت إن بعض المصادر ذكرت أنهم إذا مر عليهم وقت طويل ولم يصيدوا شيئا من الحيوانات وضَرِموا على أكل اللحم ذبحوا أحد الفتيات السمينة وأكلوها (Howitt 1904: 749-50, 753-4, 764). والميت الذي يموت بحال جيدة يأكلون جثته والبعض منهم يحتفظ بعظام البراجم أو راحة الكف أو القدمين لأغراض سحرية (Spencer & Gillen 1904: 545-9). يقول هَاوِت إن قبيلة الديْرِي Dieri يحملون معهم جثة الميت في كيس وكلما داهمهم الشعور بالحزن عليه قطعوا من لحمه وأكلوه حتى لا يبقى شيئا من الجثة إلا العظام التي يحتفظون بها حتى تهطل الأمطار فيرمونها في الوادي لتجرفها السيول. أما قبيلة اليِرْكْلا Yerkla فإذا بدأ المريض يحتضر أو شارف على الوفاة أوقدوا عنده نارا وتركوه لشأنه (Howitt 1904: 449-50).

وتضع الأم عظام طفلها الميت في كيس صغير تحمله معها أينما ذهبت لتعزيها عن فقد الطفل وإذا

نخرت العظام وضعتها في فجوة من فجوات فروع أحد الأشجار. وقد عرض سْبِنْسَر صورة لمحتويات أحد هذه الأكياس الذي سمحت له الأم بتصويرها مقابل حفنة من التبغ (Spencer 1914: 248-9). والبعض الآخر يشوي الميت على النار ويأكل لحمه ثم يلف العظام ويضعها على فرع شجرة. ويقول هَاوِت إن رائحة شواء لحم البشر تشبه رائحة شواء شرائح الحم العجل ولا تختلف عنها حتى في المذاق (Howitt 1904: 752, 753). وبعد مدة يصعد أحدهم لإنزال العظام وفك رباطها ونثرها على سفرة من ورق الشجر أعدت لهذا الغرض، ويحطمون الجمجمة ويفصلون العظام عن بعضها البعض ويدفنونها ما عدا عظام اليدين ثم يحرقون الشجرة. بعد ذلك يأخذ الرجال عظام اليدين ليسلمونها لأم الميت التي تجلس وتضعها على رجليها وتنوح عليه مع بقية النساء طوال الليل. وتحتفظ الأم بالعظام لمدة عامين أو أكثر. بعد ذلك يقيمون مأتم آخر ثم يدفنون العظام، ومنهم من يبحث عن ثقب في جذوع أحد الأشجار ويودعها فيه. ومنهم من يأكل لحم الأعداء المقتولين لكنهم يحرصون على فصل عظامهم وتبديدها وتحطيم الجمجمة لأنهم يخشون أن تلتئم هذه العظام ويعود الهيكل إلى الحياة فيتعقب القتلة ليأخذ بثأره منهم (Spencer & Gillen 1899: 475). ويذكر هَاوِت عن أحد القبائل أنه إذا اختطف رجل منهم فتاة من فتياتهم لا يسمح له بالزواج منها وفر بها طلبوه ولو أدركوه قتلوه وأكلوا لحم ذراعيه وفخذيه، بل حتى إن إخوة الهارب يشاركونهم في الوليمة، أما بقية أجزاء جسده وعظامه فيقطعونها ويكسرونها بفؤوسهم ويرمون بها (Howitt 1904: 247).

وللدماء والشحوم والشعر الآدمي قدسية خاصة عند الأبورِجِين، لذلك لا يجوز للنساء رؤيتها أو الاقتراب منها حينما تستخدم لأغراض مقدسة، ولا يخلو طقس من طقوسهم من إراقة الدماء واستخدام أحزمة وأربطة مفتولة من الشعر الآدمي (Spencer & Gillen 1899: 204, 284). وتحتل الدماء والدهون دورا بارزا في مراسيم النواح على الميت مثلا تتضمن عند بعضهم قطع أحد الأقارب فخذه أو كتفه ليجرح نفسه في ذلك الموقع جرحا غائرا تسيل منه الدماء الغزيرة (Spencer & Gillen 1899: 500). والبعض منهم يتطاعنون ويشجون بعضهم بعضا على الرؤوس وعلى أي مكان آخر في الجسد لإسالة الدماء الغزيرة على جثة الميت، الرجال بالرماح والهراوات والنساء بعصا الحفر التي يستخدمنها لاقتلاع الدرنات والجذور (Howitt 1904: 451).

وفي طقوس التكاثر وطقوس الترسيم يستخدمون الدم كمادة لاصقة يلصقون بها ريش الطيور للزينة على أجسادهم وعلى قطع التشورينغا ويدهنون به رايات تسمى النورتُنجا *nurtunja* أو *waninga* أو *kauaua* ينصبونها أحيانا في هذه المناسبات الاحتفالية (Spencer & Gillen 1899: 284). وقد يستعيضون عن الدم بالمغر الأحمر الذي يجدونه مدفونا تحت الأرض في بعض البقع المنتشرة في أرضهم ويعتقدون أنه دم متجمد من حيض نساء الأسلاف الأسطورين، ولذلك يستخدمونه كثيرا في طقوسهم عوضا عن الدم. ومن استخدامات الدم الأخرى أنه إذا أراد فريقان متخاصمان أن يتصالحا وينسيا خلافاتهما شرب كل منهم من دم الآخر.

وإذا صمم فريق منهم غزو قبيلة أخرى للأخذ بثأر قتيل لهم فإن الغزاة يشربون دما من أبناء عشيرتهم ويرشونه على أجسادهم ليمنحهم الشجاعة حى لا تخور عزيمتهم. بعد ذلك يهب أعضاء الفريق واقفين ويجرح كل منهم ذكره من الأسفل لتسيل منه الدماء الغزيرة التي يرشون بها بعضهم بعضا من أجل بث روح الحماس فيهم والتعهد بتنفيذ المهمة. وأعضاء الفريق الذين يقدمون على هذه المهمة أو غيرها من المهام

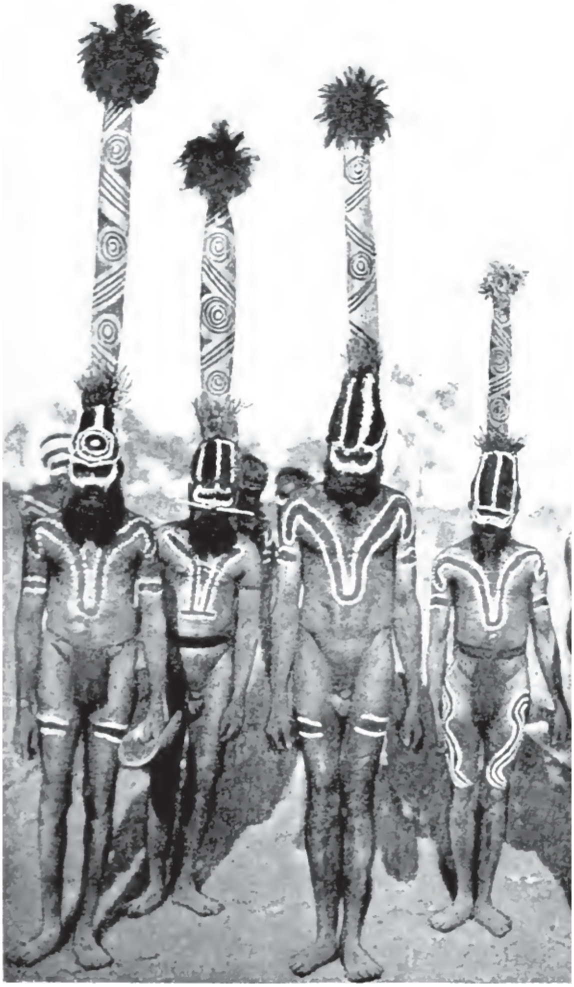

رايات النورتُنجا nurtunja التي تنصب في الطقوس الاحتفالية

الخطيرة يشربون من دم بعضهم البعض لضمان عدم خيانة أي منهم للآخرين أو تخليه عنهم أو إفشاء سرهم، وعادة ما يسحبون هذا الدم من ذكورهم وتحديدا من منطقة الجلد الأسفل من الإحليل الذي يشرّط أثناء طقوس الترسيم. وتتضمن طقوس الاستعداد لأخذ الثأر فتل عصابة من شعر القتيل يحملها أخوه تحت إبطه ويركع أمام أعضاء الفريق الذين سيشاركون في أخذ الثأر ليمكن كل شخص منهم من الإمساك بذكره ومسحه بيده ومن ثم يمسح بالعصابة على بطن ذلك الشخص ليمنحه العزيمة والتصميم على تنفيذ المهمة.

الاستعداد لأخذ الثأر

بعد ذلك يربط طرف العصابة بذكره ويقوم كل شخص من أعضاء الفريق بعض الطرف الآخر ويتعانق الإثنان. وتهدف هذه الحركة إلى إشعال نار الغضب في صدر كل واحد منهم ضد القاتل والتصميم على الثأر منه. والشعر الذي يستخدم لهذا الغرض يعد شيئا مقدسا لا يجوز للنساء والأطفال رؤيته (Spencer & Gillen 1899: 460-5; Spencer & Gillen 1904: 556-62, 598, 604).

والمسافر إذا تقطعت به السبل ولم يجد ماء يروي عطشه قطع عرقه وشرب من دمه أو أسقاه لرفاقه. ويقطع الفتيان الأشداء عروقهم ليسيل منها الدم الذي يشربه الشيوخ ليتقووا به ويعيد لهم حيويتهم ونشاطهم والمرضى للاستشفاء (Spencer & Gillen 1904: 598-600). كذلك الدم الذي يخرج من الصبي عند التختين أو عند تشريط جلدة الذكر من أسفل الإحليل لا يسكب في التراب وإنما يتلقونه ليشربه أبوه وأمه أو ليستخدمونه لأغراض مقدسة أو للاستشفاء. ولدى بعض القبائل يمددون جسم الصبي المراد تختينه على ثلاثة من أقربائه ينبطحون على الأرض أحدهم بجوار الآخر لتسيل دمائه على أجسادهم ويتأكدون أنها لا تسيل على الأرض (Spencer & Gillen 1904: 353, 355). وفي حال إصابة أحدهم بمرض عضال تجرح أحد الفتيات فرجها وما يسيل من الدم تتلقاه وتغمس فيه دودة الويتشيتا التي يأكلها المريض ويدهن جسده بما يتبقى من الدم ليبرأ من مرضه. وقبل أن تتزوج الفتاة تقوم أحد قريباتها بأخذها بعيدا عن القطين لفتح غشاء البكارة وتتلقى الدم الذي يخرج جراء هذه العملية لتأخذه إلى القطين ليشربه بعض أقارب الفتاة ويدهنون به أجسادهم. أما دم الحيض فيخشونه ويتحاشون الاقتراب من المرأة الحائض، خصوصا الفتاة التي تحيض للمرة الأولى، فهذه يبعدونها في مكان منعزل عن القطين حتى تنتهي العادة ويتوقف الدم. وطوال فترة الحيض تجلس على حفرة لتسيل فيها الدماء ولا تنهض عنها طوال اليومين الأولين وتبقى معها أمها أو أحد قريباتها لإطعامها وقضاء شوونها. وبعد توقف الدم ترمس الحفرة بالتراب وذلك حتى لا يلامس الدم النجس أيا منهم أو أيا من أشيائهم. وبعد انقضاء العادة تختّن الفتاة ثم تسلم لزوجها. ودم تختين الفتاة يستعمل لنفس الأغراض التي يستخدم له دم تختين الصبي، أي

شربه ودهن الجسد به كمادة للاستشفاء أو التبرّك (Spencer & Gillen 1904: 596-602).

ولا يقل الشحم البشري عن الدم من حيث القدسية وأهمية استخدامه في الكثير من الطقوس والشعائر. ويعزو هَاوِت أهمية الشحم إلى كونه مصدر الطاقة البدنية ومؤشر الصحة والعافية، فالهزال الشديد يأتي نتيجة المرض وقد يؤدي إلى الموت وفقدان عنصر الحياة. لذلك يحرص السحرة للحصول على الشحم نظرا لقناعتهم بفاعليته لاستخدامه في الأغراض السحرية. ويعتقد الأبورِجِين أن السحرة لديهم قدرات سرية وقوية لخنق البشر وهم نائمون وشفط الشحوم من أجسادهم، والشحم الأفضل والأقوى في الاستخدامات السحرية هو ذلك الموجود على الغشاء المحيط بالكِلْية. والعديد من القبائل تأكل لحم الموتى، خصوصا الشحم، سواء موتاهم أو موتى أعدائهم. ويستخدمون الشحم في دهن البشرة ليتشرب الجسد ما في جسد الميت من طاقة وحيوية، لذلك يحرص المرضى والعجزة وكبار السن على ذلك وأولئك الذين يمارسون التطبب والأعمال السحرية. ويعتقدون أن دهن الأجساد بالشحم ينتج عنه التوفيق في الصيد والرماح التي تدهن بالشحم لا تخطئ هدفها وضربات الهراوات المدهونة بالشحم ضرباتها قاتلة (Howitt 1904: 367, 411). وإذا مات منهم شخص من أعيانهم وشجعانهم المعدودين أسجوا جثته على نعش مرتفع ودخل الفتيان تحت النعش لتتلقى أجسادهم ما يتقاطر من الجثة من دهن وسوائل أخرى ويستمرون على ذلك لعدة أيام وذلك لاستبطان مناقب ذلك الميت ومزاياه. وهذا على خلاف ما يفعله البعض الآخر الذين يضعون جثة الميت على فرع شجرة ويجلسون تحت الجثة لتتلقى أجسادهم ما يتقاطر منها، أو يلفون الجثة بكفن من لحاء الشجر وبعدما تتعفن يفكون الكفن ليتدهنوا بالدهون والسوائل التي أفرزتها من باب التبرك بها وللتعبير عن حزنهم على الميت (Howitt 1904: 459, 471). ومنهم من يدفن الجثة ولكن قبل أن يهيلوا عليها التراب ينزل أحدهم بسكينه الحجرية ويقطع الشحم من على جسده ويرميه لأقربائه الذين يأكلونه ليخففوا من حزنهم على الميت ويطفؤوا ما يشعرون به من حرقة الأسى على فراقه. بل إن هَاوِت يقول بأن الرجل إذا قتل الآخر قطع من شحمه وأبقاه عنده حتى إذا جاء أهل القتيل للأخذ بثأره أعطاهم القاتل من شحمه ليأكلوه فتهدأ ثورتهم ويسكن غضبهم ويعفّون عن القاتل. ومنهم من يلجأ لطريقة أخرى لتخفيف الحزن على الميت وذلك بترك جثته حتى يهترئ اللحم والعصب تماما وتنفصل العظام عن بعضها البعض فيجمعها ويضعها في كيس يحمله معه أينما ذهب. وتبقى هذه العظام مع الزوج أو الزوجة طيلة الحياة ثم تدفن معه إذا مات أو حتى يتزوج مرة أخرى، والبعض يكتفي فقط بالاحتفاظ بعظمة الفك الأسفل (Howitt 1904: 448-50, 751).

ومن عادة النساء عندهم قص شعورهن وتهب المرأة شعرها لزوج بنتها ليفتل منه حزاما لوسطه ورباطا لشعر رأسه. وأجساد الرجال ووجوههم يغطيها شعر كثيف على كل أنحاء الجسد وللتخلص منه يلجأون لنتفه حيث لا يعرفون الحلاقة. أما بالنسبة لشعر الرأس فإنهم يفتلون منه معظم الخيوط التي يتحزمون بها أو يربطون بها شعر رؤوسهم أثناء أداء الطقوس أو يلفون بها قطع التشورينغا أو يربطون بها الأغصان وغيرها من الأشياء المقدسة التي يستخدمونها في طقوسهم. وإذا أعار أحدهم قطعة التشورينغا التي تخصه إلى شخص آخر ليتبرك بها فإن المستعير يكافئ الآخر بجزة من شعره (Spencer & Gillen 1899: 466). وهناك مناسبات لا بد فيها للشخص أن يهدي شخصا آخر جزة من شعره مما يعني أن عليه أن يحلق شعره ليقدمه هدية لذلك الشخص، إذ أن أفضل هدية تقدمها لشخص آخر هي خيط مفتول من

الشعر الآدمي. وإذا أراد الشخص قص شعره إما لسبب طقوسي أو لأنه طال لدرجة يتحتم عليه قصه فإنه يجلس القرفصاء ويتقبل الجهة التي يفترض أنه جاء منها سلفه الذي هو يتقمص روحه أو سلف أمه ثم يجمع الشعر بعد قصه ويهديه لأبي زوجته أو لخالها أو، إن كان أعزبا، لأبي الفتاة التي يفترض أنها زوجة المستقبل. وأخو الفتاة يقص خصلة من شعره ويهديها لخطيبها الذي يقوم بلفها ووضعها تحت إبطه مما يشير إلى أنه موعود بالزواج من الفتاة، وبعد ذلك تأخذ هي خصلة الشعر وتعلقها ليعرف الرجال الآخرون أنها محجوزة. وبعد انتهاء طقوس التختين يقص الفتى جزة من شعره ويقدمها لأخته لتفتل منه خيطا على شكل حزام تلفه على وسطها. وشعر المرأة دائما من نصيب زوج بنتها يعمل منه عصابة يلف بها شعر رأسه. ويقصون شعر الميت ليذهب من نصيب أبى زوجته وإخوانها. ونظرا لما للشعر الآدمي من قيمة عندهم فإنهم يستخدمونه للمقايضة واستبداله بأشياء أخرى يحتاجون لها. ولا يفرطون في الشعر بعد حلقه إلا في حالة قصه كرمز للحزن على موت قريب، وفي هذه الحالة يتم حرقه مباشرة بعد حلقه حتى لا يقع بيد شخص آخر يمكن أن يستخدمه في أغراض سحرية ضد صاحبه. وإذا تعسرت ولادة المرأة خلع زوجها الخيط المفتول من الشعر الآدمي والذي يلف به شعر رأسه ليربطه على وسط زوجته أسفل من صدرها. وبعد الولادة يقطعون سر الوليد ويتركون منه بضعة سنتيمترات لتظل ملتصقة بالجنين ولا يقطعونها. وبعد أن يلتئم الجرح يقطعون الجزء المتبقي من السر ويتركونه لينشف ثم تعلقه الأم على عنق الطفل ليمنحه الصحة والعافية. (Spencer & Gillen 1899: 467; 1904: 602-5).

مفاهيم الحمل والولادة

وكما تترابط طقوس الأَرُنْتا مع معتقداتهم عن الأسلاف الطوطميين، كذلك مفاهيمهم عن الحمل والإخصاب، فهم يعتقدون أن أرواح أسلافهم تجوس المنطقة المحيطة بالمركز الطوطمي للعشيرة كل منها تتربص منتظرة مرور أي امرأة بالغ لتنفذ إلى رحمها وتخصبها. ولذا تتحاشى النسوة اللائي لا يرغبن في الحمل المرور بالقرب من هذه الأماكن ويبتعدن عنها. ولو اضطرت فتاة لا ترغب في الحمل أن تمر بالقرب من أحدها فإنها تغير من سنحتها ليبدو وجهها متجعدا وتمشي محدودبة الظهر تتعكز على عكاز وتقول مخاطبة الأرواح بصوت كصوت العجائز "لا تقتربوا مني فأنا عجوز فانية". والبعض منهن يتحرجن من قطع فروع بعض الأشجار خوفا من إزعاج الأرواح التي تحل فيها مما قد يتسبب في تطايرها فيدخل البعض منها إلي رحمها ويخصبها (Spencer & Gillen 1904: 162, 330-1). أي أن الإخصاب في نظر قبيلة الأَرُنْتا لا يعود إلى مضاجعة الرجل زوجته وإنما إلى نفاذ روح من أرواح أولئك الأسلاف إلى رحم المرأة ليصبح الجنين الذي تحمله في رحمها نسخة من ذلك السلف الذي نفذت روحه داخل جسدها، أي أنهم يعتقدون بتقمص روح السلف وتجسدها من جديد في المولود الجديد. وهكذا فإن الأَرُنْتا، كما يقول سْبِنْسَر وغِيلِن، لا يعرفون مفهوم العذرية ولا يتصورون أن هناك أي علاقة بين الجماع والإخصاب (Spencer 1914: 23-5, 330-1; Spencer & Gillen 1899: 123-5, 265). لذا فإن ما يحدد طوطم الجنين ليس طوطم أمه ولا طوطم أبيه، فالأَرُنْتا، على خلاف معظم القبائل الأخرى في أستراليا، لا يعتقدون بتوارث الطوطم من الوالد للولد كما عند بعض القبائل. ما يحدد طوطم المولود عند الأَرُنْتا هو المكان الذي شعرت فيه المرأة بأعراض الحمل لأول مرة، لأن كل موطن من مواطن العشائر التي تقطن أرض القبيلة يحتوي على مركز طوطمي يخص

جنسا معينا من النباتات والحيوانات التي تتكاثر في المنطقة وتتخذ منه العشيرة طوطما لها، والبقعة التي يقع فيها المركز الطوطمي هي التي تتكاثر فيها أرواح أسلاف العشيرة تنتظر الفرصة السانحة للوثوب والولوج في رحم أي امرأة تمر بالمكان. فإذا شعرت المرأة بأعراض الحمل في منطقة تخص الكنغر فإن طوطم الجنين هو الكنغر وإن كانت منطقة تخص دودة الويتشيتي فإن دودة الوتشيتي تصبح هي طوطمه، وهكذا. وربما غطست المرأة قدمها في بركة مليئة بأرواح أولئك الأطفال الذين ينتمون للأوز فيدخل أحدهم من أحد أصابع قدمها بين الظفر واللحم فيلقحها فيولد طفلها أوزّة (Spencer & Gillen 1904: 150). أي أن الطفل لا يرث انتماءه الطوطمي لا من أمه ولا من أبيه، ما يحدد الانتماء الطوطمي للطفل هو أقرب مركز طوطمي من البقعة التي شعرت فيها الأم لأول مرة بأعراض الحمل كأن تحس بالجنين يتحرك داخل رحمها أو تشعربالغثيان أو تتوحم بنوع معين من الطعام. ونظرا لطبيعة حياتهم الترحالية بحثا عن القوت، فمن الوارد جدا أن يقع المكان الذي شعرت فيه الأم بأعراض الحمل لأول مرة خارج موطن عشيرة الأم أو عشيرة الأب. ذلك المكان، وليس الموطن الذي يعيش فيه الأب والأم، هو الذي يقع فيه المركز الطوطمي الذي سينتمي له الجنين والذي سوف تستودع فيه بعدما يولد قطعة التشورينغا التي تخصه. عدم توارث الطوطم من الوالد للولد يعني أن من ينتمون لنفس الطوطم لا تربطهم بالضرورة علاقة الدم ولا رابطة المكان بل يتشتتون بين عشائر مختلفة تقطن أماكن متفرقة.

إذا ولد المولود ذهب أهله للبحث عن التشورينغا التي تتضمن الروح التوأم للجنين بالقرب من النَّنْجا في المكان الذي شعرت فيه الأم لأول مرة بأعراض الحمل. وإن لم يجدوا قطعة التشورينغا في المكان

رسومات طوطمية وملصقات من الريش لتزيين الجسد

الذي يحتمل وجودها فيه حفروا للجنين قطعة أخرى من الخشب وفق الشكل المتعارف عليه وأودعوها مع القطع الأخرى المحفوظة في المستودع الذي تحفظ فيه هذه القطع المقدسة في ذلك المكان. ولحفر مثل هذه النقوش تُستخدم عادة أسنان الأبوسوم، وهو حيوان جرابي أصغر من الكنغر. وإذا مات الفرد عادت روحه لتحل مرة أخرى في نفس النَّنْجا الذي جاءت منه وتنتظر مرور امرأة لتنفذ في جسدها وتلقحها. وهكذا لا تتوقف دورة تجدد التقمص وتجسد الأرواح التي تربط كل جيل معاصر من البشر بسلسلة من التجسد المتكرر عودا إلى الوراء حتى تصلهم في نهاية المطاف بأسلافهم الأسطوريين الذين يعود وجودهم إلى عصر الخلق السحيق (Spencer & Gillen 1904: xi, 258, 448-51).

وتختلف مفاهيم بعض القبائل المحادّة لقبيلة الأَرُنْتا من الشمال عنها فيما يتعلق بالحمل والتقمص، إذ يعتقد أولئك أن المرأة لا يلج فيها ويلقحها إلا روح طفل ينتمي لنفس الطوطم الذي ينتمي له زوجها مهما كان المكان الذي شعرت فيه بأعراض الحمل لأن الأرواح التي تنتمي لطوطم زوجها تلاحقها أينما ذهبت، ولذا يتم تتبع النسب الطوطمي في هذه القبائل من ناحية الأب تحديدا (Spencer & Gillen 1904: 148-9, 169-70). أما من يتتبعون النسب من ناحية الأم فإنهم يعتقدون أنه لا يلج الأم ويلقحها إلا روح تنتمي لنفس الطوطم الذي تنتمي له. ومنهم من يعتقد أنه في كل ولادة جديدة يتغير جنس الروح وطوطمها. فالروح التي يولد منها ذكرا ينتمي لطوطم الكنغر مثلا سوف تذهب روحه بعد موته إلى محلها في النَّنْجا لتولد في المرة القادمة أنثى تنتمي لطوطم غير طوطم الكنغر وفي الولادة الثالثة تعود الروح لتولد ذكرا ينتمي لطوطم مختلف، وهكذا (Spencer 1914: 264-8; Spencer & Gillen 1904: 148-9, 174-6). وتعتقد قبائل أخرى أن الأسلاف كلما رقصوا وهزوا أجسادهم أثناء ممارستهم الشعائر والطقوس تناثرت منها أرواح الأطفال، وتلك هي الأرواح التي تدخل لاحقا إلى أجساد الأمهات من البشر وتلقحها (Spencer 1914: 265-7). وتقليدا لأولئك الأسلاف يقوم الأبورجِين أثناء تأدية مختلف الطقوس بإلصاق كميات كثيفة من الريش على أجسادهم الذي يتساقط منها أثناء الرقص ويتطاير تماما كما كانت الأرواح تتطاير من أجساد الأسلاف الأسطوريين أثناء تأديهم رقصات الطقوس التي كانوا يدأبون على ممارستها، مثلهم مثل أحفادهم من البشر. ويرى سْبِنْسَر وغِيلِن أن مفهوم قبيلة الأَرُنْتا حول هذه المسألة هو المفهوم الأبسط لذا فمن المرجح أنه الأقدم والأكثر بدائية وأن المفاهيم التي تتبناها القبائل الأخرى تطورت عنه (Spencer & Gillen 1904: 281-2).